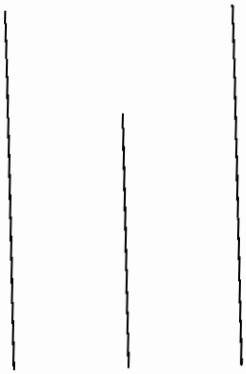

الحياء

(صفته - منزلته - غاياته)

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة
آداب إسلامية
(٤)

الحياء

(صفته - منزلته - غاياته)

قال ﷺ
«خلق الإسلام الحياء»
[رواه مالك]

تأليف
أحمد خليل جمعة

الطبعة الأولى

1423هـ - 2003م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

مقدمة

الحمدُ لله الذي جعلَ الحياءَ حُلَّةَ الجمال ، وحِلْيةَ الكمال ، يُحْتَرَمُ في عيونِ الناسِ صاحبُه ، ويعظم جانبُه ، فإذا رأىٰ خيراً قبله وتلقَّاه ، وإنْ أبصر شرَّاً ابتعدَ عنه وتحاشاه .

اللَّهُمَّ اجعلنا ممَّن يتَّصفون بالحياء ، وينأونَ عن كُلِّ ضَرَّاء ، ولا تجعلنا عن رحمتك في إقصاء ، يا مُحيي الموتىٰ ومُنير الظَّلماء .

وصلّىٰ اللهُ علىٰ سيِّدنا محمد ، خير مَنْ دعا إلىٰ ارتداء ثوب الحياء ؛ ليستوجبَ الإنسانُ من الناس المحبَّةَ ومن الله الثناء ، فيخاطب الناسَ كأنَّه خَجِل ، ويتجنَّب محارمَ الله عَزَّ وجَل ، فتميل إليهِ القلوب ، وينال كلَّ أمرٍ محبوب ، فمن قلَّ حياؤه قلَّتْ أحبَّاؤه .

أمّا بعد :

فإنَّ الحياءَ خيرٌ كلُّه ، وأمارة صادقة دالَّة علىٰ مضمون الإيمان في نفس الإنسان التَّقي الأديب ، فتراه يتحرَّج من اقتراف الأفعال التي لا تليق ، أو تخدش المروءة ، أو تُصيب الآداب في مَقْتَل ، فذاك الإنسانُ حيُّ الضمير ، أصيل المحتد ، نقيُّ السَّريرة ، مُتألِّق الصِّفات ، وأهمّ ما فيه حياؤه الذي يعصمه عن اجتراح الدنايا ، ويزعه عن اقتراف الآثام .

وقد أبرز رسولُ الله ﷺ خُلُقَ الحياء ، وأعطاه درجة سامية ، بل جعله مِنْ أخلاق الإسلام وآدابه الفاضلة ، فقال ﷺ : « إنَّ لكلِّ دِيْن خُلُقاً ، وخُلُقُ الإسلام الحياء »[1] .

وكان ﷺ أرقَّ الناس شعوراً ، وأنبلهم خُلُقاً ، وأكثرهم بُعْداً عن الحرام ، وأشدّهم اتصالاً بالواجب وأداءً له . قال أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ : كان رسولُ الله ﷺ أشدَّ

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٠٥) .

حياءً من العذراء في خدرها ، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وَجْهه[1] .

ولا يستحي حقَّ الحياء إلاَّ مَنْ زكتْ نَفْسُه ، واستقامت أخلاقُه ، وتهذَّبتْ أعمالُه ، وغضّ عن سفاسف الأمور بَصَره ، واتَّقدتْ عاطفته باتجاه الخير ، وساد كلَّ ذلك إيمانٌ يستشعر عظمةَ الخالق عَزَّ وجَلَّ . قال ﷺ : « الحياءُ والإيمانُ قُرناء جميعاً ، فإذا رُفِع أحدُهما رُفِع الآخر »[2] .

وللحياء مواضع يُستحسن فيها ، كالحياء مِن ذِكر العورات ، وتلفظ الكلمات البذيئة ، وامتلاك ناصية الكلام في المحافل العامة ولو ضجر الآخرون ، وكثيراً ما يكون العيُّ خيراً من الفصاحة .

والذي لا يُؤدِّي حقوقَ الآخرين ، ولا يعطيهم ما يستحقونه ، فلا خيرَ فيه ، وهو يُعاني من مرض خطير

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٢) ومسلم (٦٧/٢٣٢٠) .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢٢/١) وصححه ، ووافقه الذهبي .

يُسمَّىٰ : قلَّة الحياء ، كما يُخْشىٰ عليه من سوء العاقبة ، فالدُّنيا فانية ، والعَقَبة كأداء ، والحسابُ عسير .

وما أجدر بالمسلم أن يستحيي من الله حقَّ الحياء ، فَيُحِقّ الحقَّ ، ويُبْطِلَ الباطل ، ولا يُمَني نفسه الأماني ، ويختلق المسوِّغات الهشَّة ، ويحاول إقناعَ نَفْسه الأمَّارة بالسوء بأنه حَسَن الإيمان ، وهو يعلم حقيقة العلم أنه قد قَذَف هذا ، وشَتَم هذا ، وسرق مالَ هذا ، واستغلَّ ذاك ، وهَضم حقَّ أجرائه والمتعاملين معه ، وأكلَ أموالَ الناس بالباطل ، وإنْ ألبسَ أعماله ثوبَ التُّقىٰ ، وبدا أمام أعين الناس بمظاهر التَّديُّن ، فالتقوىٰ في القلوب ، والسُّلوك يُصدِّق قُرْبه من الإيمان أو يُكذِّبه ؛ من خلال الشعور بأنَّ الله يُراقبه ، ويطَّلع عليه ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصُّدور .

والويلُ كلُّ الويل لمن خلعَ رداءَ الحياء ، واصطبغ بالوقاحة ، والتَّعدي علىٰ حُرمات الله تعالىٰ ، فما أشبهه بالقشرة الخضراء التي تسقطُ عن الفَنَن الغضّ ، فسرعان ما يذوي ويذبل إنْ واجهته حرارة الشمس ، وعَدَتْ عليه

تقلُّبات الجوّ ، وعند ذلك سيفنىٰ ماؤه ، كذلك الفاجر قليل الحياء ؛ الذي فَقَدَ حسَّ الإيمان ، فهو على شفا جُرُفٍ هار ، ومُهَدَّد بضمور الإيمان ، وانكشاف أمره في الدُّنيا ، وتعرُّضه لعذاب الله عَزَّ وجَلَّ في الآخرة .

ومثل هذا مَنْ يمقتُ نِعَمَ الله تعالىٰ عليه ، فيحسد الآخرين ، ويتمنَّىٰ زوالَ فَضل الله عنهم ؛ ليكون هو الأغنىٰ بزعمه ، فيحيا عمره والحسدُ يأكل قلبه ، وسيئاته تتكاثر عليه ، وحسناته تقلّ ، ويفقد الحياء ـ سيِّد مكارم الأخلاق ـ رويداً رويداً ؛ حتىٰ يلقى ربّه وهو عليه غضبان ، والعياذ بالله .

اللَّهُمَّ اجعلنا منَ الذين يستحون منكَ حقَّ الحياء ، وممَّن يقرنون إيمانَهم بالمراقبة والخشية منك يا ربَّ العالمين .

اللَّهُمَّ اجعلنا ممَّن يحفظ الرأس وما وعىٰ ، والبطنَ وما حوىٰ ، ويذكر الموت والبِلىٰ ، ويترك زينةَ الحياةِ الدُّنيا ؛ أُنساً بالله ، وحُبّاً برسوله ﷺ ، فيؤثر الآخرة علىٰ الأولىٰ .

اللَّهُمَّ علِّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علَّمتنا ، وزِدْنا علماً يا أرحم الراحمين .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباب الأول

الحياء بين
الإيمان ومكارم الأخلاق

الفصل الأول : الحياءُ والإيمانُ

الفصل الثاني : الحياءُ والعقل والأدب

الفصل الأول

الحياءُ والإيمان

الحياءُ وما أدراكَ ما الحياءُ ؟!

ـ الحيـاءُ زينـةُ الفضـائـلِ ، وذِروةُ المكـارمِ ، وتـاجُ المحاسنِ ، ولباسُ التقوىٰ ، وفوقَ هذا كلّه فهو منَ الإيمان .

ـ نعم ؛ الحياءُ من الإيمانِ ، والمؤمنُ في الجنَّةِ ، والحياءُ مرتبطٌ بالإيمانِ بحبل متين ؛ فإذا لزمَ المرءُ الحياءَ كانتْ أسبابُ الخير فيه موجودة ، لأنَّ الحياءَ هو الحائلُ بينَ المرءِ ، وبينَ المزجوراتِ جميعها ، فبقُوّة الحياء يضعفُ ارتكابه إيّاها ؛ وبضعفِ الحياءِ تقوىٰ مباشرتُه إيّاها .

ـ فالإيمانُ والحياءُ كالرُّوح والجسد ، لا يستغني أحدُهما عنِ الآخر ، وإذا ما خرجتِ الرُّوح منَ الجسد ، لم يُنْتَفَعْ به .

ـ إنَّ المؤمنَ لا غنىٰ له عن هذهِ الحِلية التي تتوّج أخلاقَه ، وتعطّرُ سلوكه ، وتنيرُ دربه ، وتجعله في مصَافِّ الفائزين ، فإذا كانَ الحياءُ في الإنسانِ كانَ معه الخير ، ومَنْ كان معه الخيرُ نجا وفازَ .

ـ وقد عدَّ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ الإيمانَ والحياءَ صنوان ، فعن عبدِ الله بنِ عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ النبي ﷺ قال : « الحياءُ والإيمانُ قرناء جميعاً ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر »[1] .

ـ ولعلَّ سائلاً يسأل : ما وجْهُ الارتباطِ بينَ الإيمانِ والحياءِ ، حتىٰ يكونَ رفعُ أحدهما مستلزماً رفعَ الآخر ؟!

ـ وفي الإجابةِ عنْ هذا السُّؤالِ نقولُ : إنَّ مِنْ كلامِ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّ الحياءَ منَ الإيمانِ ، ومتىٰ علِمْنا أنَّه منَ الإيمانِ في السُّلوك النَّفسي والفعلي للإنسانِ ، عرفْنا أنَّ الإيمانَ لا يتجزأُ عنِ الحياءِ ، وعلمنا أنَّه متىٰ رُفِعَ الحياءُ رُفِعَ الإيمانُ ، لأنَّ

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٢٢) ؛ وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٩٧) .

الحياءَ جزءٌ ملازمٌ للإيمانِ ، الصَّحيح الصَّادقِ ، وهو لا ينفكُّ عنه ، فعدَمُ وجودِ الحياءِ دليلٌ علىٰ عدمِ وجودِ الإيمان .

ـ فالحياءُ يمنعُ الإنسانَ منَ المعاصي مع الإيمانِ الذي يرافقُه الخوفُ منَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، لذلكَ كانَ منَ الطبيعي ألاّ يُوجدَ الحياءُ متىٰ رُفِعَ الإيمان ؛ وبهذا يظهرُ لنا سِرُّ الارتباطِ والتّلازم بين الحياءِ والإيمان في ظلِّ الإسلام .

ـ ولقد جعل سيِّدُ أهلِ الحياءِ حبيبنا محمدٌ ﷺ الحياءَ من الإيمانِ ، كما جاءَ في الصّحيح والسُّننِ فيما أخرجَه صاحِبا الصّحيحين عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ، أنَّ النبي ﷺ مرَّ علىٰ رجُلٍ وهو يعاتبُ أخاهُ في الحياءِ ، يقول : إنَّك لتستحيي ، كأنَّه يقول : قد أضرَّ بك ؛ فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « دَعْه ، فإنَّ الحياءَ منَ الإيمان »[1] .

ـ وكما قرأنا في الحديثِ السّابق بأنَّ الحياءَ منَ الإيمانِ ،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦١١٨) ؛ ومسلم برقم (٣٦) ، وأحمد (٩/٢) ، وأبو داود برقم (٤٧٩٥) ، والترمذي برقم (٢٦١٥) ، والنسائي (١٢١/٨) ، وابن ماجه (٥٨) .

نتعرّفُ أيضاً بأنَّ له صِلَةً وثيقةً بالإيمانِ ، إذْ هو شعبةٌ منْ شُعَبِهِ ، كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة قال النبي ﷺ : « الحياءُ شعبة من الإيمان »[1] .

ـ وبهذا كانَ للحياءِ منزلةٌ عظمىٰ منَ الإيمانِ ، إذ الإيمانُ تصديقُ القلبِ ، وإقرارُه ، ومعرفتهُ ، ولهذا كانَ النبيُّ ﷺ يقولُ في دعائه إذا صلّىٰ علىٰ الميّت : « اللَّهُمَّ مَنْ أحييته مِنّا ، فأحيهِ علىٰ الإسلامِ ، ومنْ توفيتهُ منا ، فتوفّه على الإيمان »[2] . فعندئذ لا يبقىٰ غير التصديق بالقلب .

ـ ويدخلُ في مسمّىٰ الإيمان وجَلُ القلوبِ منْ ذِكرِ اللهِ ، وخشوعُها عندَ سماعِ ذِكرِهِ وكتابهِ ، وخوفُ اللهِ سرّاً وعلانيةً ، والرّضا باللهِ ربّاً ، وبالإسلام دِيناً ، وبمحمدٍ ﷺ رسولاً ، واستشعارُ قربِ اللهِ دائماً ، ودوامُ استحضاره ، وحسنُ

---

(١) رواه البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) ، والنسائي (٨/ ١١٠) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٨) ، وأبو داود (٣٢٠١) ، والترمذي (١٠٢٤) ، وابن ماجه (١٤٩٨) .

الخُلُقِ ، وكلُّ فضائلِ المكارمِ منْ أقوال وأفعال ؛ وهذه المسمياتُ كلُّها في الذروةِ العُليا في عالَم الإيمانِ ، فكيف إذا ارتبطت بالحياء ؟!

- إنَّ الحياءَ يدفعُ المرءَ إلىٰ التّحلي بكل جميل محبوب ، والتخلّي عنْ كلِّ قبيح مكروه ، والجمالُ منَ الكمال ومن الإيمان ، والقبحُ منَ النُّقصان ومنَ الخسران .

- إنَّ جمالَ الخصالِ والأفعالِ أسمىٰ من جمال الرسومِ والأشكالِ ، لذلك حثَّ الإسلام على التحلي بخلُق الحياء ، لأنَّه منَ الإيمان .

- فالحياءُ إذاً ذو منزلةٍ عظيمة في عالم الإيمان ، وهو فضيلة لا تدانيها فضيلة ، إذ هو جماعُ كلِّ خير ، لأنَّ المؤمنَ الحييَّ قد ذاقَ طعمَ الإيمان ، فاتّخذ الحياءَ لباساً يتحلّىٰ ويتجمل به في أموره كلّها ؛ كما أن الحياء من مكارمِ الأخلاق وآدابها ، وقد جعلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مكارمَ الأخلاق ومحاسنها وصْلاً بينه وبينهم ، وحَسْبُ المؤمنِ أنْ يتّصلَ من اللهِ بخُلقٍ منها ، وما أجملَ أن نتّصل بخالقنا بحبْلِ الحياء . . !!

الفصل الثاني

الحياءُ والعقلُ والأدبُ

ـ الحياءُ من الأخلاق والآداب النّبيلةِ المأثورةِ عن الأنبياء المتقدمين ، وقد تداولَه النَّاسُ بينهم جيلاً بعد جيل ، وتوارثوه عنهم قرناً بعد قرن ، والنّبواتُ المتقدّمة جاءتْ به ، وأقرّه العقل ؛ وقد جاء في الصحيحِ وغيرِهِ عنْ أبي مسعود البدري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ ممّا أدركَ النَّاسُ من كلام النبوة الأولىٰ : إذا لم تستحي ، فاصنعْ ما شئت »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء برقم (٣٤٨٣) و (٣٤٨٤) ، وفي الأدب برقم (٦١٢٠) ، وأحمد (٢/ ١٢١ و ١٢٢) و (٥/ ٢٧٣) ، وأبو داود في الأدب =

ـ وقوله : « إذا لم تستحي فاصنعْ ما شئت » ؛ معناه : إذا لم يكن لك حياءٌ فاعمل ما شئتَ ، فإنَّ اللهَ يجازيك عليه ؛ أو : إنَّ منْ لم يستحي صنع ما شاء ، فإنَّ المانعَ من فعل القبائح هو الحياءُ ، فمن لم يكن له حياء ، انهمك في كل فحشاء ومنكر ، وعندها يغيب عنه ميزان العقلِ الذي يزِنُ الفضائل بميزان الحكمة ، لأنَّ الحياءَ أصلُ العقلِ وأساسه وجذره .

ـ قالَ ابنُ حبّان البُستي ـ رحمه الله ـ : الواجبُ علىٰ العاقلِ لزوم الحياء ، لأنَّه أصلُ العقلِ ، وبذرُ الخير ، وتركهُ أصلُ الجهل ، وبذر الشرِّ ، والحياء يدلُّ علىٰ العقل ، كما أنَّ عدمَهُ دالٌّ علىٰ الجهلِ ، ومَنْ لم يُنْصف النّاس منه حياؤه ، لم ينصفه منهم قِحَتُه[1] ؛ ولقد أحسنَ الذي يقول :

= برقم (٤٧٩٧) ، وابن ماجه في الزهد برقم (٤١٨٣) ، وانظر : حلية الأولياء (٤/ ٣٧١) ، وتاريخ بغداد (٢/ ١٣٥و١٣٦) .

(١) انظر روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص ٨٥) .

وليسَ بمنسوبٍ إلىٰ العلمِ والنُّهىٰ فتىً لا تُرىٰ فيهِ خلائقُ أربعُ
فواحدةٌ تقوىٰ الإلهِ التي بها يُنال جسيمُ الخيرِ والفَضْلِ أجمعُ
وثانيةٌ صدقُ الحياءِ فإنَّه طباعٌ عليهِ ذو المروءةِ يطبعُ
وثالثةٌ حلمٌ إذا الجهلُ أطلعتْ إليهِ خبايا من فجورٍ تسرَّعُ
ورابعةٌ جودٌ بملكِ يمينه إذا نابَهُ الحقُّ الذي ليس يُدفعُ

ـ نعم يجبُ علىٰ المرءِ أنْ يكونَ حييّاً ، فإنَّه سجيةُ وخلقُ وأدبُ أهلِ العقل والمروءة[1] ، وقد حضَّ الفُضلاء علىٰ اختيار الحيي العاقل ، وجعلوا عنوانَ الصَّداقةِ الحياء والعقل ، وفي هذا يقول أحدهم يدعو إلىٰ اتخاذِ الخليلِ العاقل صاحبِ الحياء :

إذا ما كنتَ متخذاً خليلاً فلا تثقن بكلّ أخي إخاء
فإنْ خُيّرتَ بينهمُ فألصقْ بأهْلِ العقلِ منهم والحياء

---

(١) وفي تحقيقِ هذا المعنىٰ يقول محمد بنُ حازم :
وإنّي ليثنيني عنِ الجهلِ والخنا وشتم ذوي القربىٰ خلائقُ أربعُ
حياءٌ وإسلامٌ وتقوىٰ وأنني كريمٌ ومثلي قد يضرُّ وينفعُ

ـ إذاً ، فالواجب علىٰ العاقلِ أنْ يعوِّدَ نفسَه لزومَ الحياء مـنَ الله ، ومـنَ النـاس ، وأن يتعـوّدَ ركـوبَ الخصـال المحمودة ، ويجانبَ الخلال المذمومة ، كما أنَّ من أعظم بركاتِ الحياء ويُمْنِهِ الفوزَ بالجنَّة بلزومِ الحياء ، وذلك عند مجانبة ما نهىٰ الله عنه ، فإذا قوي حياؤه ، دلَّ علىٰ وفور عقله ، واستقامة تفكيره .

ـ وللحيـاءِ مكـارمُ كثيـرةٌ ، ومحـاسـنُ عـديـدةٌ إذا قُـرن بالعقل ، منها نَشْرُ المحاسن ، وإذا غاب الحياء غابت الفضائل كلها ، وغدا المرءُ لا خيرَ فيه .

ـ قال ابن حبان البستي ـ رحمه الله ـ : إنَّ المرءَ إذا اشتدَّ حياؤه صانَ عرضه ، ودفن مساويه ، ونشر محاسنه ، ومَنْ ذهبَ حياؤه ذهبَ سروره ، ومَنْ حزنَ فَقَدَ عقْله ، ومَنْ أُصيب في عَقْله كان أكثر قوله عليه لا له ، ولا دواء لمن لا حياء له ، ولا حياءَ لمن لا وفاء له ، ولا وفاء لمن لا إخاء له ، ومَنْ قلَّ حياؤه ، صنعَ ما شاء ، وقالَ ما أحبّ[1] .

---

(١) انظر : روضة العقلاء (ص ٨٩) .

ـ ويجمعُ هذهِ المعاني كلّها قول الشاعر :

إذا لم تَصُنْ عِرضاً ولم تخشَ خالقاً وتستحي مخلوقاً فما شئتَ فاصنع

إذا كنتَ تأتي المرءَ تعظمُ حقَّه ويجهلُ منك الحقَّ فالصّرم أوسع

* * *

البابُ الثاني

الحياءُ والحياة

الفصل الأول : الحياءُ في حياةِ الإنسان

الفصل الثاني : أنواع الحياء وأقسامه عند العلماء

الفصل الأول

الحياءُ في حياة الإنسان

ـ لاشكَّ بأنَّ للخير معنىً كامناً ، يُعرفُ بصفاتٍ تدلُّ عليه ، وسمةُ الخيرِ : الدَّعةُ والحياء ، وكفىٰ بالحياءِ خيراً أنْ يكونَ علىٰ الخيرِ دليلاً .

ـ والحياءُ مادَّةُ الخيرِ في حياةِ الإنسان ، وبه تظهر الفضائل ، بل بهِ تُستَرُ العيوب ، قالَ بعضُ الحكماء : مَنْ كَسَاهُ الحياءُ ثوبَه ، لم يرَ الناسُ عيبَه . وقال بعضُ البلغاء : حياةُ الوجهِ بحيائه ، كما أن حياةَ الغرسِ بمائه .

ـ ولأنَّ الحياةَ المستقرّة تحتاجُ إلىٰ الحياء ، لذا فالحياءُ يشتملُ علىٰ مجانبةِ المكروهِ منَ الخصال ، والمذموم منَ الفعال ؛ أما مَنْ سُلِبَ مادة الحياء ، فليس له رادعٌ عن

ارتكابِ قبيحٍ ، ولا زاجرٌ عنْ محظورٍ ، فهو يُقدِمُ علىٰ ما يشاء ، ويأتي ما يهوىٰ ، ولهذا قال بعض العلماء البلغاء : يا عجباً ، كيف لا تستحي من كثرة ما لا تستحي! . .

ـ فالحياءُ عنوانُ الحياةِ ، وعنوانُ الكرامِ وأهل الخير والفضل ، ولقد أصابَ الشاعرُ إذ قال :

إذا قلَّ ماءُ الوجهِ قلَّ حياؤُه ولا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ ماؤهُ
حياءَك فاحفظه عليك وإنَّما يدلُّ علىٰ فعلِ الكريم حياؤه

ـ وعلىٰ هذا فالحياءُ مفتاحُ كلِّ فضيلةٍ ، وإكسيرُ الحياة الرّغيدةِ في ظلالِ الاستقامةِ ، وإذا طارَ الحياءُ من الإنسانِ ، دعاهُ ذلك إلىٰ أنْ يعملَ ما يشاء ، لا يردعه عنه رادع ، لذا فليستحي المرء ، فإنَّ الحياءَ يردعه ، ويهديه إلىٰ منابعِ الخيرِ ، ومنابت الفضل .

ـ وتكونُ الحياةُ طيّبة المعنىٰ والمغنىٰ إذا استطاع المرءُ أنْ يزنَ أموره بميزان الحياء ، ومقياس الاستحياء ، وجاءت هذه المعاني ممثلة في قول أحدِ فضلاء العلماء حيث قال : إذا عرضتَ عليكَ أفعالكَ التي هممتَ بفعلها ، فلم تستحي منها

لحسنها ، فاصنعْ ماشئتَ منها[1] .

ـ ونلحظُ بعينِ البصيرة أنَّ هذا المرءَ قدْ جعلَ الحياءَ حَكَماً علىٰ أفعاله ؛ ومَنْ سار في هذا الدّربَ الوضيءَ حَسُنتْ علانيتهُ إذ هي مِثْلُ سِرِّه ، فَمَنْ كانَ سره وعلانيته سواء ، فهو منْ أهلِ الحياء ، وخاصةً إذا كانتْ أعمالُه متوجةً بالإيمانِ ، منداةً برحيقه[2] .

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص ٣٩٢) .

(٢) قد يقولُ قائل : إنَّ ظاهرةَ الحياءِ موجودة عندَ غيرِ المؤمنين!! والحقيقة ؛ فظاهرةُ الحياءِ مرتبطةٌ بما يقولهُ النَّاس عنه : هذا عيبٌ أو نقصٌ ، لا ما يقوله الدِّين .

إنَّ المؤمن إذا خلا بنفسه ، استحيا من ربه أنْ يفعل النقائص ، أمّا غيرُ المؤمنِ فإنّه يجدُ شيئاً من الشعورِ بحياءِ من هذا القبيل ، وكلُّ ما في الأمر أنّه يحرص علىٰ أن يكون كاملاً في أعين النّاس ، وليس له عنايةٌ بالكمالِ الحقيقي الذي ترتبطُ مفاهيمه بالإيمان .

ومن الجدير بالذِّكر أنَّ بعضَ هؤلاء يقولون : إنَّ الحياءَ ضَعْفٌ في النّفس ، وما علىٰ الإنسان إلا أن يكونَ جريئاً في تلبية دوافعه مهما كان شأنها ، وعندها يكون شجاعاً حقّاً ، أمّا الحياءُ فإنَّه ضعفٌ وأي ضعف!!!

ـ والمرء العاقلُ الذي يودُّ أنْ تكونَ أمورُه منتظمةً يراقبُ نفسه ، فتستوي حياته ، ويستقيم سلوكه ، وخصوصاً عندما يستحضرُ قولَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] . وقولَ اللهِ أيضاً : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] . وقوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ١٤] .

ـ فالإنسانُ المؤمنُ لا يستحي منَ الكمالِ إذا هو ظهرَ به ، واتّصفَ بصفاتهِ ، وإنّما يستحيي مما فيه نقص ، أو مما يخشىٰ أنْ يكونَ فيهِ نَقْص ، لذلك فالحياءُ منْ علو النَّفس ، ومنْ كمال حياةِ الإنسان ، وذلك لحبها للكمال ، وحرصها علىٰ أنْ تتصف بصفاته ، وتظهر أمام النَّاس بالمظهر التي تدلُّ عليه .

ـ وقد نلاحظُ بعضَ النّاسِ منَ الذينَ يغلبُ عليهم الحياءُ ، يستحيون من أمور لا نقص فيها ، وليس منْ شأنها أن يُستحيا منها ، ولكنَّ ذلك يرجعُ إلىٰ سوءِ فَهمِهم لبعضِ الأمور ، أو إلىٰ عدمِ تقديرهم للأمور حقَّ قدرها ، إذ المسؤولُ عنْ ظاهرةِ الحياء في غيرِ محلّه هو مفاهيم الفِكْر الخاطئة ، ولكن حين

يجري تصحيح هذه المفاهيم لا يستحيي ذو الحياء مما لا يُستحيا منه ، بل يواجه النّاس بكلّ جرأة وشجاعة ، ويعيش حياتَه باتزانٍ وهدوء .

ـ ومِنْ هذا وذاك أبانَ رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ الحياءَ منَ الإيمانِ ، وأنَّهُ خيرٌ كلّه ، وأنَّه لا يأتي إلا بخير .

ـ ومن المشاهد العامّة التي تفيدُ الإنسانَ في حياته ، ما نجد أنَّ خُلقَ الحياءِ يمنَعُ صاحبه من ارتكاب ما يغضُّ من شخصيته ، وما يسلكه في طريق المنكرات ، أمّا حينما ينعدمُ خلق الحياء ، فإنَّ الإنسانَ يفعلُ في حياته ما يشاءُ ، فذهابُ خلقِ الحياء يجعلُ الإنسان وقحاً لا يبالي أوقعَ علىٰ الفواحِش ، أم وقعتْ عليه ، ولا يكترثُ بما يقوله الناس فيه ، وما يعيبونه به .

ـ أما الحياءُ فيحجزُ المرءَ عن الدَّنس ، ويجعله يتستَّرُ بثوب الحياء إذا ما كبا وسقط في شيءٍ من أوحاله ، ويجعله بعيداً عن فحش القول والبذاءة ، ويعيش في نعيم هذا الأدب العظيم ، أدب الحياة ، الذي هو مادة الحياة وروحها .

الفصل الثاني

أنواع الحياءِ وأقسامه عند العُلماء

تعرّضَ العلماءُ والأدباءُ والفضلاء والفقهاء والمحدّثون إلىٰ أنواعِ الحياءِ ، وكلُّهم أدلىٰ دلوه ، ولكنَّ هناك شيئاً واحداً ينظمُ ما قالوه ، وهو الحياءُ منَ الله عَزَّ وجَلَّ ، والحياء الفطري ، وها نحنُ أولاء مرسلو القولَ في بعضِ أقوالِ الفضلاء في أنواع الحياءِ ، ورؤية كلّ واحدٍ منهم إليه من منظار العلم ، حيثُ نجدُ الحياء من خلال الناحية الزهدية ، أو الحديثية ، أو الأخلاقية ، أو الأدبية ، وما شابه ذلك .

ـ ففي كتابه النَّفيس الجميل « روضة العقلاء » جعل ابنُ حبّان البُستي الحياءَ في نوعين ، وشرحهما وفصلهما ، فقال : الحياء حياءان :

أحدُهما : استحياءُ العبدِ منَ اللهِ جلَّ وعلا عند الاهتمام بمباشرة ما حُظر عليه .

والثاني : استحياؤه من المخلوقين عند الدُّخول فيما يكرهون منَ القول والفعل معاً .

ـ والحياءان جميعاً محمودان ، إلا أنَّ أحدهما فرض ، والآخر فضل .

فلزوم الحياء عند مجانبةِ ما نهىٰ عنه فرض ، ولزوم الحياء عند مفارقة ما كره الله فضل[1] .

ـ وتعرّضَ أبو الليث السّمرقندي إلىٰ أنواع الحياء ، بعد أنْ ساقَ قلائدَ من جمانِ الأدلّة الحديثية والزّهدية فقال : الحياءُ علىٰ وجهين : حياء فيما بينكَ وبينَ النَّاس ، وحياء فيما بينكَ وبينَ اللهِ تعالىٰ .

أمّا الحياءُ الذي بينك وبينَ النَّاس : أن تغضَّ بصرك عما لا يحلّ لك .

---

(١) انظر : روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص ٨٧) .

وأمّا الحياءُ الذي بينك وبين اللهِ تعالىٰ : أن تعرفَ نعمته ، فتستحي أن تعصيه[1] .

ـ واعتبر ابنُ رجب ـ رحمه الله ـ أنَّ الحياء يكون علىٰ نوعين اثنين : حياء منْ أصلِ الجبلّة ، وحياء مُكتسب ، فقال ما مفاده وملخصه : واعلم أنَّ الحياءَ نوعان :

أحدهما : ما كان خَلْقاً وجِبلّة غير مكتسب ، وهو منْ أجلِّ الأخلاق التي يمنحها اللهُ العبدَ ، ويجبله عليها ، ولهذا قال ﷺ : « الحياءُ لا يأتي إلا بخير »[2] ، فإنَّه يكفُّ عن ارتكابِ القبائح ودناءة الأخلاق ، ويحثُّ علىٰ استعمالِ مكارمِ الأخلاقِ ومعاليها ، فهو من خصالِ الإيمان بهذا الاعتبار .

الثاني : ما كانَ مكتسباً منْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفة عظمته ، وقربه من عباده واطلاعه عليهم ، وعلمه بخائنةِ

---

(١) انظر : تنبيه الغافلين (ص ٤٧٨) تحقيق يوسف علي بديوي .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦١١٧) ؛ ومسلم برقم (٣٧) .

الأعين وما تخفي الصُّدور ؛ فهذا من أعلىٰ خصال الإيمان ، بل هو أعلىٰ درجات الإحسان . فقد قال رسولُ الله ﷺ لرجل : « استحي من الله كما تستحي من صالح عشيرتك »[1] . وقد يتولدُ من الحياءِ الحياءُ من مطالعة نِعمهِ ورؤية التقصير في شكرها ، فإذا سُلبَ العبدُ الحياءَ المكتسب والغريزي ، لم يبقَ له ما يمنعه من ارتكاب القبيح ، والأخلاق الدّنيئة ، فصار كأنَّه لا إيمانَ له[2] .

ـ وفي « مدارجه » يُدرج ابنُ قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ الحياءَ في عشرة أنواع ، ويأتي ببعضِ الأمثلةِ اللطيفة علىٰ كل نوع وكل قسم مما ذكره ، أما الأنواع عنده فهي : حياء جناية ، حياء تقصير ، حياء إجلال ، حياء كرم ، حياء حشمة ، حياء استصغار للنفس واحتقار لها ، حياء محبة ، حياء عبودية ، حياء شرف وعزّة ، وحياء المستحيي من نفسه[3] .

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤٠٨) ؛ والترمذي برقم (٢٤٥٨) .
(٢) انظر : جامع العلوم والحكم (١/ ٥٠١ و ٥٠٢) .
(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٦١) .

ـ وها نحنُ أولاء ـ ونحن في رحاب أدب الحياء ـ نوردُ ما ذكره ابنُ قيم الجوزية ، بشيء من التصرف كي يحلوَ موضوعنا ، وكيما تتوضحَ أمامنا معالم الحياء في عالم الأخلاقِ ، وعندها نتمثّل الحياء في حياتنا قولاً وعملاً وسلوكاً .

أولاً : حَياءُ الجنايةِ :

ربما يقعُ الإنسانُ في خطأ ما عن غير قصد ، وعندها يحصلُ له الحياءُ منْ هذا القبيل ، ومن ذلك حياءُ أبي البشرية آدم ـ عليه السلام ـ لما أكل وزوجه من الشجرة ، ففرَّ هارباً في الجنّةِ ، فقال الله عَزَّ وجَلَّ له : أفراراً مني يا آدم ؟

قال آدم ـ عليه السلام ـ : لا يا رب ، بل حياء منك .

ثانياً : حياءُ التقصير :

وحياءُ التقصيرِ هذا شعورٌ تجاه العالَمين ، كحياءِ الملائكة الذين يسبحون الليل والنّهار لا يفترون ، فإذا كان يومُ القيامة قالوا لربّ العالمين : سبحانك! ما عبدناك حقّ عبادتك .

ثالثاً : حياء الإجلال :

والإجلالُ معناه هنا التعظيمُ للهِ عَزَّ وجَلَّ ، فبقدرِ معرفةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ يكونُ حياءُ المعرفةِ ، وعلىٰ حسبِ معرفةِ العبد بربِّهِ وعلمهِ به ، يكونُ حياؤه منه . فالعبدُ متىٰ عرفَ أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ ناظرٌ إليه ، أورثتهُ هذه المعرفةُ حياءً منه ، يجذبُه إلىٰ احتمالِ أعباءِ الطاعةِ ، مثل العبد المملوك إذا عملَ الشُّغل بين يدي سيّده ، فإنه يكون نشيطاً فيه ، ولا سيما مع إحسان سيده إليه ، ومحبته لسيّده ، بخلافِ ما إذا كان غائباً عن سيِّده ، والله عَزَّ وجَلَّ لا يغيبُ نظره عن عبدهِ .

رابعاً : حياءُ الكرم :

وذروة هـذا الحيـاء تتمثـل فـي شخـص حبيبنـا ونبينـا محمد ﷺ ، وذلك كحيائه ﷺ من القومِ الذين دعاهم إلىٰ وليمة زوجته أم المؤمنين زينب رضي الله عنها ـ وهم ثلاثةُ رجالٍ ـ وطوّلوا الجلوس عنده بعد أنْ أكلوا الطّعام ، وجعلوا يتحدثون في البيت ، فقامَ ﷺ واستحيا أنْ يقول لهم : انصرفوا .

خامساً : حياءُ الحشمةِ :

وحشم تعني : خجل ، واحتشم إذا اتّصف بالحياء ، ومثالُ حياءِ الحشمة حياءُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه من رسول اللهِ ﷺ ، إذ احتشم أنْ يسأله عنْ أشياء لمكان ابنته فاطمة منه .

سادساً : حياءُ الاستحقار واستصغار النفسِ :

وهذا النّوعُ منَ الحياءِ ينتابُ العبد حينما يسألُ ربّه عن حوائجه ، حيث يحتقرُ شأنَ نفسه ، ويستصغرها ، وهذا الحياءُ منبعثٌ عن استحقار السّائل نفسه ، واستعظام ذنوبه وخطاياه ، وما بدر منه ، ويمكن أن يكونَ هذا الحياءُ منبعثاً عن استعظام المسؤول ، واستحضاره في النّفس ، وهو اللهُ عَزَّ وجَلَّ .

سابعاً : حياءُ المحبةِ :

وهذا الحياءُ منْ أرق الأنواع العشرة ، وهو حياءُ المحب من محبوبهِ ، بحيث إن خطرَ علىٰ قلبه في غيبته هاجَ الحياءُ منْ

قلبه ، ومن ثُمَّ أحسّ به في وجهه ، ولا يدري ما سببه .

ـ ولعلَّ سببَ هذا الحياء هو المفاجأة ، وسببهُ لا يعرفُهُ أكثرُ الناسِ ، ولا ريبَ أنَّ للمحبةِ سلطاناً قاهراً للقلبِ أعظمُ من سلطانِ مَنْ يقهر البدن .

ثامناً : حياءُ العبودية :

من الممتعِ في هذا الحياءِ أنَّه ممتزج من نقيضين ، ومتولّدٌ من متضادين ، فحياء العبودية ممتزجٌ من محبةٍ وخوف ، ومشاهدة عدم صلاح عبودية العبد لربهِ عَزَّ وجَلَّ ، إذ إنَّ قدره أعلىٰ وأجلَّ وأعظم منها ، لذلك فإنَّ عبوديته له توجبُ استحياءه منه لا محالة .

تاسعاً : حياءُ الشرفِ والعزةِ :

يبدو للوهلة الأولىٰ أنَّ نوعَ هذا الحياء فيه شيءٌ منَ التناقض ، واعترتنا لذلك الدهشة ، ولكن إذا أمعنا الفِكر في معناه زالتِ الدهشة ، حيث إنَّ حياءَ النّفس الكبيرة إذا صدر

منها ما هو دون قدرها وشرفها من بذلٍ أو عطاء أو إحسان أو تفضُّل ، فإنَّ المرءَ إذ ذاك يستحيي مع بذله وعطائه حياءً يسمىٰ : حياء شرف وعزّة ، لأنَّه تعوّد علىٰ ما هو أفضلُ وأجودُ في العطاء ، وبالتالي يكونُ حياؤه من الذي يعطيه ، حتى لكأنَّه هو الآخذُ وهو السّائل ، ولعلَّ هذا يدخلُ في حياءِ التلوم ، لأنه يستحيي من خجلةِ الآخذ .

عاشراً : حياء المرء المستحيىٰ من نفسه :

وهذا الحياءُ يقتربُ منْ مراتبِ الكمال ، فهو حياء النّفوس الشريفة الغريزة من رضاها لنفسها بالنقص ، وقناعتها بالدّون ، فيجد نفسه مستحياً من نفسه ، حتىٰ كأن له نَفْسَيْن ، يستحيي بإحداهما منَ الأخرى ، وهذا أكمل ما يكون منَ الحياء ، فإنَّ المرءَ إذا استحيا من نفسه ، فهو أجدر أن يستحيي من غيره[1] .

---

(١) انظر : مدارج السّالكين لابن قيم الجوزية (٢/ ٢٦١ـ٢٦٣) بشيء من التصرف ، وقد زدْنا في إيضاح بعض الأنواع =

ـ أمّا أبو الحسن الماوردي ـ رحمه الله ـ فللحياء عنده طعمٌ خاص ، وأنواعٌ جميلةٌ ، فالماوردي ممنْ عُرف بسعةِ أفقه ، وغزارة علمه ، وتعمّقه في مسائل الفقه ، وكذلك تبحره في الأدب ، وكانَ من أهل الحياء[1] ، فكيف تحدّثَ الماوردي عن أنواع وأقسام الحياء ؟!

= العشرة لتعمَّ الفائدة بإذن الله .

(١) في مقالة طيبة للشيخ محمد أبو زهرة ـ رحمه الله ـ يلخصُ صفاتِ أبي الحسن الماوردي بخمس صفات ؛ جعل رابعتها الحياء ، فقال ما مفاده :

اتّصفَ أبو الحسن الماوردي بصفاتٍ جعلته الذروة بين رجال العلم عبر التاريخ الإسلامي ؛

وأولى هذه الصفات : ذاكرة واعية ، وبديهة حاضرة ، وعقل مستقيم .

وثانيها : اتزان في القول والعلم .

وثالثها : الحلم وضبط النفس .

والرابعة : التواضع وإبعاد النفس عن الغرور ، وكان حييّاً شديدَ الحياء ، وفيه وقارٌ وهيبة .

والخامسة : الإخلاص .

ـ لاشكّ بأنَّ حديثَه عنْ أنواعِ الحياء له طعم خاص ، وأسلوبٌ رائعٌ موشّحٌ بعطرِ هذا الأدب العظيم ، وهذا السّربال المبارك الميمون .

ـ فلنعش لحظات ممتعة مع الحياء وأنواعه عند أبي الحسن الماوردي ، حيث لخصها في ثلاثة أنواع فقال : اعلم أنَّ الحياء في الإنسانِ قد يكون من ثلاثة أوجه :

أحدها : حياؤه منَ اللهِ تعالىٰ .

والثاني : حياؤه منَ الناسِ .

والثالث : حياؤه من نفسه .

ـ والآن دعونا ندخل معاني الحياء عند الماوردي ، وكيف فصّلها ، وما جاء به من أدلة وشواهدَ وحكايات ، ونحن ذاكرون ما تسعفنا به الذاكرة من فوائد ـ أيضاً ـ تتصل بالحياءِ نضيفها إلىٰ حديث الماوردي .

النوعُ الأولُ : حياءُ الإنسان من الله تعالىٰ :

ـ يكونُ الحياءُ منَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بامتثالِ الإنسان أوامره ، وطاعته فيما أمرَ به ، والكفّ عن زواجره ، واجتناب معاصيه .

ـ روىٰ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قال : « استحيوا منَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حقّ الحياء » .

فقيل : يا رسول الله ، فكيف نستحيي منَ اللهِ حقّ الحياء ؟

قال : « من حفظَ الرأسَ وما حوىٰ ، والبطنَ وما وعىٰ ، وتركَ زينةَ الحياةِ الدُّنيا ، وذكرَ الموتَ والبلىٰ ، فقد استحيا منَ اللهِ حقّ الحياء »[1] ، وهذا الحديث منْ أبلغِ الوصايا في

---

(١) رواه أحمد (١/٤٠٨) ، وأخرجه الترمذي في صفة القيامة برقم (٢٤٥٨) ؛ وقالتِ العلماء : الصوابُ أنَّ هذا الحديثَ موقوفٌ عن ابنِ مسعودَ ، هذا ولم يُشِرْ محقق كتاب أدب =

سلوكِ طريق الحياء وسبيل الاستحياء .

ـ وفي ثنايا هذا النّوع يروي أبو الحسن الماوردي قصة حُلُمٍ رأىٰ فيه النبي ﷺ ، وكيف أوصاه بالحياء ، فلنعِشْ أحلامَ حلم الماوردي ، ولنستمع إليه وهو يروي لنا منامه فيقول : رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ في المنام ذات ليلة ، فقلت : يارسولَ اللهِ ، أوصني .

فقال : استحي من اللهِ عَزَّ وجَلَّ حقَّ الحياءِ .

ثم قال : تغيّر النّاس .

قلتُ : وكيفَ ذلك يا رسولَ الله ؟!

قال : كنتُ أنظرُ إلىٰ الصّبي ، فأرىٰ في وجههِ البشر والحياء ، وأنا أنظر إليه اليومَ ، فلا أرىٰ ذلك في وجهه .

ـ ثم تكلّم بعد ذلك بوصايا وعِظات تصوّرتها ، وأذهلني السُّرور عن حفظها ، وودتُ أنّي لو حفظتها ؛ فلم يبدأ بشيء ﷺ قبل الوصية بالحياء من الله تعالىٰ ، وجعل ما سُلِبه

= الدنيا والدين إلىٰ تخريج هذه الأحاديث .

الصبيُّ من البِشْرِ والحياء سبباً لتغيّر الناس ، وخصّ الصّبي ، لأنَّ ما يأتيه بالطّبع من غيرِ تكلّف ، فصلّىٰ اللهُ عليه وسلم علىٰ مَنْ هدىٰ أمته ، وتابعَ إنذارها ، وقطع أعذارها ، وواصل تـأديبهـا ، وحفـظ تهـذيبهـا ، وجعـل لكـل عصـرٍ حظـاً مـن زواجره ، ونصيباً من أوامره ، أعانَ اللهُ علىٰ قبولها بالعمل ، وعلىٰ استدامتها بالتوفيق .

ـ ويتابع الماوردي هذه الفقرة فيقول : ورُوي أنَّ النبي ﷺ وصّىٰ رجلاً بالحياءِ فقال له : « استحي من الله استحياءك من رجلين من صالحي عشيرتك لا يفارقانك » . وهذا النوعُ من الحياءِ يكون من قوةِ الدِّين ، وصحةِ اليقين ، ولذلك قال النبي ﷺ : « قلة الحياء كفر » يعني منَ اللهِ تعالىٰ ، لما فيه من مخالفةِ أوامرِه ، وقال ﷺ : « الحياءُ نظامُ الإيمان ، فإذا انحلّ نظام الشيء ، تبدد ما فيه وتفرّق »[1] .

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص ٣٩٤) .

النوعُ الثاني : حياءُ الإنسان من الناس :

ـ يرىٰ الماوردي ـ رحمه الله ـ أنَّ الحياءَ منَ الناسِ يكونُ بكفِّ الأذىٰ ، وبتركِ المجاهرة بالقبيح ، لأنّ من تقوىٰ اللهِ اتقاء النّاس .

ـ روي أنَّ حذيفة بنَ اليمانِ العبسي ـ رضي الله عنهما ـ أتىٰ الجمعة ، فوجدَ النّاس قد انصرفوا ، فتنكّبَ الطريق عن النّاس ، وقال : لا خيرَ فيمن لا يستحيي منَ الناس .

ـ وقال بشار بن برد في هذا المجال :

ولقد أصرفُ الفؤاد عن الشي ء حيـاءً وحبُّـه فـي السّـواد
أمسكُ النّفس بالعفاف وأمسي ذاكراً في غدٍ حديثَ الأعادي[1]

ـ ويتابعُ الماورديُّ حديثه عن الحياء من الناس ، ويعده من تمام المروءة فيقول : وهذا النوعُ من الحياءِ قد يكون من

---

(١) ديوان بشار بن برد (٢/ ١٧٨) .

كمال المروءة وحبِّ الثّناء ، ولذلك قال ﷺ : « من ألقىٰ جلبابَ الحياءِ فلا غيبة له » يعني : لقلّة مروءته ، وظهور شهوته .

ـ وروىٰ الحسن عنْ أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال ﷺ : « إنَّ من مروءة الرجلِ ممشاه ، ومدخله ، ومخرجه ، ومجلسه ، وإلفه ، وجليسه » .

ـ وقال بعض بلغاء الشُّعراء في هذا المجال :

وربَّ قبيحةٍ ما حالَ بيني ... وبين ركوبها إلا الحياءُ
إذا رُزِقَ الفتىٰ وجهاً وقاحاً ... تقلّب في الأمورِ كما يشاءُ
ولم يكُ للدواءِ ولا لشيءٍ ... يعالجه به فيه غناءُ
فما لكَ في معاتبة الذي لا ... حياءَ لوجهه إلا العناءُ

ـ وقال آخر :

إذا لم تَصُنْ عرضاً ولم تخشَ خالقاً ... وتستحي مخلوقاً فما شئتَ فاصنع

النوعُ الثالثُ : حياءُ الإنسان من نفسه :

ـ هذا الحياء نابعٌ من مراقبةِ الإنسان لنفسه ، ويكونُ ذلك بالعفة ، وصيانة الخلوات ؛ قال بعض الحكماء : ليكن استحياؤك من نفسِك أكثر من استحيائك من غيرك .

ـ وقال بعضُ الأدباء : مَنْ عمل في السِّر عملاً يستحي منه في العلانية ، فليس لنفسه عنده قدرٌ .

ـ ويرىٰ الماوردي أنَّ الرجلَ إذا بلغَ أربعين سنة فعليه ارتداءُ ثوبِ الحياء ؛ ويضربُ مثالاً على ذلك فيقول : دعا قومٌ رجلاً كان يألفُ عشرتهم ، فلم يجبهم وقال : إني دخلتُ البارحةَ في الأربعين ، وأنا أستحيي من سني .

ـ وقال بعضُ الشعراء في استواءِ سريرته وعلانيته :

فسرّي كإعلاني وتلك خليقتي وظلمةُ ليلي مثلُ ضوءِ نهاريا

ـ وهذا النّوع منَ الحياءِ ، قد يكونُ من فضيلة النّفس ، وحسن السّريرة ، فمتىٰ كَمُلَ حياءُ الإنسان من وجوهه

الثلاثة : منَ اللهِ ، ومنَ النّاس ، ومنْ نفسه ؛ فقد كَمُلت فيه أسبابُ الخير ، وانتفتْ عنه أسبابُ الشرِّ ، وصار بالفضل مشهوراً ، وبالجميل مذكوراً[1] .

ـ هذه أنواعُ الحياءِ عند الماوردي ، وقد لاحظنا كيف أسبغَ الماوردي روحه علىٰ هذه الأنواع فجاءت جميلةً ، أحاطتْ بما يهمُّ المرءَ في دينهِ ودنياهُ في الحياء .

ـ إنَّ الإنسان إذا أخلَّ بأحدِ وجوه الحياء السابقة ، لحقه من النّقص بإخلاله ، بقَدْر ما كانَ يلحقه من الفضل بكماله .

ـ روي أنَّ أبا بكرٍ الصديق[2] ـ رضوان اللهِ عليه ـ كانَ يتمثل بهذا الشِّعر :

---

(١) انظر : أدب الدنيا والدين (ص ٣٩٢ـ٣٩٥) بشيء من التصرف .

(٢) من الجدير بالذكر أنَّ أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لم يقل الشعر أبداً ، كما أخبرت بذلك أمنا عائشة ابنته رضي الله عنها .

وحاجةٍ دون أخرىٰ قد سنحت لها جعلتهـا للتـي أخفيـتَ عنـوانـا

وإنني لأرىٰ مَنْ لا حياء له ولا أمانة وسط القومِ عُريانا

* * *

الباب الثالثُ

الحياء في رحاب اللغة والأدب والقصة

الفصل الأول : الحياءُ علىٰ متنِ اللغةِ والاصطلاح

الفصل الثاني : الحياءُ علىٰ ألسنةِ الحكماءِ والأدباء

الفصل الثالث : من قصص الحياءِ في التُّراث

الفصل الأول

الحياءُ على متنِ اللغةِ والاصطلاح

في « لسانه » أفردَ ابنُ منظور ـ رحمه الله ـ حديثاً عنِ الحياءِ ، وقد أخذَ مساحةً واسعةً من كتابهِ استغرقت بضع صفحات ، أفاضَ الحديثَ فيها عن مادة الحياء في لغة العرب ، ومدلولها في كلامهم ، ومما قاله ابنُ منظور :

« الحياء » : التوبةُ والحشمةُ ، وقد حييَ منه حياءً ، واستحيا ، واستحىٰ ، حذفوا الياء الأخيرة كراهية التقاء الياءَين ؛ والأخيرتان تتعدّيان بحرفٍ ، وبغير حرف .

يقولون : استحيا منك واستحياك ، واستحىٰ منك واستحاك .

قال ابن برّي : شاهدُ الحياءِ بمعنىٰ الاستحياء قول جرير :

لولا الحياءُ لعادني استعبار ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يُزارُ

ـ وروي عن النبي ﷺ أنَّه قال : « الحياءُ شعبةٌ من الإيمان » . قال بعضهم : كيف جعل الحياءَ ـ وهو غريزة ـ شعبةً من الإيمان وهو اكتساب ؟

ـ والجواب في ذلك : أن المُستحي ينقطع بالحياء عن المعاصي ، وإنْ لم تكن له تقية ، فصار كالإيمانِ الذي يقطعُ عنها ويحولُ بين المؤمنِ وبينها ؛ قال ابن الأثير : وإنَّما جعلَ الحياءَ بعضَ الإيمان ، لأنَّ الإيمانَ ينقسمُ إلى ائتمار بما أمرَ اللهُ به ، وانتهاءً عما نهىٰ اللهُ عنه ، فإذا حصلَ الانتهاءُ بالحياءِ ، كان بعضَ الإيمان ، ومنه الحديث : « إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت » . المراد أنَّه : إذا لم يستحِ صنعَ ما شاءَ ، لأنَّه لا يكون له حياءٌ يحجزه عن المعاصي والفواحش .

ـ قالَ ابنُ الأثير : وللحديثِ تأويلان :

أحدهما : وهو المشهور ؛ إذا لم تستحِ منَ العيبِ ، ولم تخشَ العار بما تفعله ، فافعل ما تحدّثك به نفسك من أغراضها حسناً كان أو قبيحاً ، ولفظه أمرٌ ، ومعناه توبيخ

وتهديد ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الذي يردعُ الإنسان عن مواقعة السُّوء هو الحياء ، فإذا انخلعَ منه كان كالمأمور بارتكاب كل ضلالة ، وتعاطي كل سيئة .

والثاني : أن يُحملَ الأمرُ علىٰ بابه ، يقول : إذا كنت في فعلك آمناً أن تستحي منه ليجزيك فيه على سنن الصواب ، وليسَ منَ الأفعال التي يُستحى منها فاصنعْ ما شئت .

ورجل حيي : ذو حياء ، وامرأة حيية .

واستحيا الرجل ، واستحيت المرأة ، وقوله :

وإنّي لأستحيي أخي أنْ أرىٰ لهُ عليَّ منَ الحقِ الذي لا يرىٰ لِيا

معناه : آنفُ من ذلك .

ـ قال الأزهري : للعربِ في هذا الحرف لغتان :

يقال : استحىٰ الرجل يستحي ، بياء واحدة .

واستحيا فلان يستحيي بياءين .

والقرآن نزل بهذه اللغة الثانية في قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة : ٢٦] .

قال الأخفش : استحىٰ : بياء واحدة لغة تميم ؛ وبياءين لغة أهل الحجاز ، وهو الأصل .

وحييتُ منه : استحييت .

واستحياه ؛ واستحيا منه ، بمعنى منَ الحياء[1] .

ـ وقال الزمخشري عن الحياء : حييتُ منه : أحيا حياءً ، واستحييتهُ ، واستحييتُ منه ، واستحيتُ ، وأنا أستحي منه ، وهو رجلٌ حييٌّ ، وهو أحيا من مخدَّرة ، قالت ليلىٰ ـ الأخيلية ـ :

وأحيا حياءً من فتاةٍ حييةٍ وأشجعَ من ليثٍ بخفَّان خادر[2]

ـ وقال الفيومي : استحييته : بياءين ، إذا تركته حيّاً فلم تقتله ، ليس فيهِ إلا هذه اللغة . وحييَ منه حياءً بالفتح والمد فهو حيي ؛ واستحيا منه وهو الانقباض والانزواء[3] .

ـ وقال أبو البقاء الكفوي في كلياته : الحياء : بالمد ؛

---

(١) لسان العرب (١٤/ ٢١٧ـ٢١٩) بتصرّف واختصار .
(٢) أساس البلاغة (ص ١٥٠) .
(٣) المصباح المنير (ص ١٦٠) .

الحشمة ، وبالقصر : المطر الخيّر . والحياء أيضاً : انقباض النّفس عن القبيح مخافة اللوم ، وهو الوسط بين الوقاحة التي هي الجرأةُ علىٰ القبائحِ وعدمِ المبالاة بها ، والخجل الذي هو انحصارُ النفسِ عن الفعلِ مطلقاً ، وإذا وُصِفَ به الباري تعالىٰ فالمرادُ به التّرك اللازم للانقباض ، كما أنَّ المراد من رحمته وغضبه إصابة المعروف والمكروه اللازمين لمعنييهما[1] .

ـ ونترك كتبَ اللغةِ لنعيشَ معاني الحياء في كتب الأخلاق ، قال ابنُ قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ : الحياء : منَ الحياة ، ومنه الحيا للمطر ، لكن هو مقصور . وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خُلُق الحياء ، وقلةُ الحياء من موتِ القلب والرّوح ، فكلما كان القلبُ أحيى كان الحياءُ أتمّ[2] .

ـ وقال البُستي : الحياء اسم يشتملُ علىٰ مجانبة المكروه منَ الخصال[3] .

---

(١) الكليات (ص ٤٠٤) .
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٥٩) .
(٣) روضة العقلاء (ص ٨٧) .

ـ وعكس الحياء : القِحَة : من الوقاحة بالفتح : قلة الحياء ، وقد وقُح وقاحةً وقِحةً فهو وقِحٌ ، وامرأة وقاحُ الوجه .

قال ابن منظور : يقال : رجلٌ وقيح الوجه ووقاحه : صُلْبُه قليل الحياء ، والأنثىٰ وقاحٌ . ويقال : وقِح ووقُح الرجل : إذا صار قليلُ الحياء فهو وقح ووقاح[1] .

ـ وقال النووي في التهذيب : حيي : الحياء ممدود ، وهو خصلةٌ من خصالِ الإيمانِ كما صحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال : « الحياءُ من الإيمان » ؛ وصحّ عنه ﷺ أنَّه قال : « الحياءُ خيرٌ كلُّه » .

قال الواحدي : قال أهل اللغة : أصل الاستحياء من الحياة ، واستحيا الرجل من قوة الحياةِ فيه لشدة علمه بمواقع العيب ، فالحياءُ من قوة الحس ولطفه وقوة الحياة .

وقال مجد الدين بن الأثير في باب ما ينقض الوضوء من

---

(١) لسان العرب (٢/ ٦٣٧) .

مسند الشافعي : الحياء تغيرٌ وانكسار يعرض للإنسان من تخوّف ما يعاب به ويذمّ عليه ، واشتقاقه من الحياة ، فكأنّ الحي جعل متنكسَ القوة منتقصَ الحياة لما يعتريه من الانكسار والتغير ، يُقال : استحييتُ منه ، واستحييته بمعنى ، ويقال : استحيتُ بياء واحدة ، أسقطوا الياء الأولىٰ وألقوا حركتها على الحاء ، والأصل إثبات الياءين وهي لغةُ أهلِ الحجاز ، وحذف الأولى لغة تميم ، والله تعالىٰ أعلم . وقولهم في باب الغُسل في حديث أم سُلَيم الأنصارية رضي الله عنها : « إنَّ اللهَ لا يستحيي من الحق » معناه : لا يستحيي أنْ يبيّن ما هو الحق[1] .

* * *

(١) انظر : تهذيب الأسماء واللغات (٣/٧٦) .

الفصل الثاني

الحياءُ على ألسنةِ الحُكماءِ والأدباءِ

حظي أدبُ الحياءِ بمساحاتٍ واسعاتٍ من آفاق المعرفة وآفاق الآداب كما حظي بمساحةٍ كبيرةٍ من بطون الكتب وكلمات الأدباء والحكماء والأعلياء ، وهمسات الشعراء .

ـ ونحنُ مرسلو بعضَ القولِ في هذا الفصلِ لفائدتهِ ، وجامعو فيهِ ما تفرّقَ في المصادرِ ، وما استطعنا حصاده من ألبابِ الألبّاءِ ، وأنفاسِ الأدباءِ الحكماءِ .

ـ ومن روائعِ البدائعِ في الحياء ، ومجالسةِ أهلهِ ليظلَّ الحياءُ حيّاً في النفوسِ ما كانَ يُقال : أحيوا الحياء بمجالسة مَنْ يُستحيا منه[1] .

---

(١) عيون الأخبار (١/ ٢٧٨) ، والعقد الفريد (٢/ ٤١٣) .

ـ ووصف أعرابي من الأعراب رجلاً ذا حياء وإغضاء فقال : لا تراهُ الدّهرَ إلا وكأنَّه لا غِنىٰ به عنك ، وإنْ كنتَ إليه أحوجَ ، فإنْ أذنبتَ غفر وكأنَّه المذنبُ ، وإنْ أسأتَ إليهِ أحسنَ وكأنَّه المسيء[1] .

ـ وفي هذا المعنىٰ قالت ليلىٰ الأخيلية تصف رجلاً أشدّ :

فتىً هو أحيا مِنْ فتاةٍ حييةٍ وأشجعُ من ليثٍ بخفّان خادر

ـ وقالت ليلىٰ أيضاً في المعنىٰ ذاته :

ومقدّرٍ عنه القميص تخالُه وسطَ البيوتِ منَ الحياء سقيما
حتىٰ إذا رُفعَ اللواء رأيته تحت اللواءِ علىٰ الخميسِ زعيما

ـ ولابن قيس ما يشبه هذا المعنىٰ في مديحهِ جماعةً بالحياء :

تخالهم للحلمِ صمّاً عن الخنا وخرساً عن الفحشاء عند التهاجر
ومرضىٰ إذا لوقوا حياءً وعفّةً وعند الحفاظِ كالليوثِ الخوادر

---

(١) المصدران السابقان نفسهما .

ـ وقال أبو دهبل الجمحي يمدحُ النبي ﷺ من قصيدة :

نزرُ الكلامِ منَ الحياء تخاله ضمناً وليس بجسمه سقم
عَقِمَ النساءُ فلا يلدنَ شبيهه إنَّ النِّساء بمثله عقم[1]

ـ ويدلي الشعبي ـ رحمه الله ـ دلوه في هذا المضمار ، فمما حُفِظَ عنه من أقوالهِ النفيسة ، وحِكَمه الرّائعة هذا القول الجميل عن الحياء : تعايشَ الناسُ زماناً بالدِّين والتقوىٰ ، ثُمَّ رفعَ ذلك ، فتعايشوا بالحياء والتذمم ، ثم رُفع ذلك ، فما يتعايش النّاسُ إلا بالرغبةِ والرهبةِ ، وأظنّه سيجيءُ ما هو أشدُّ من هذا[2] .

ـ وقال بعضهم في محاسنِ الحياء : الحياءُ يزيدُ في النُّبل[3] .

---

(١) عيون الأخبار (١/ ٢٧٨ و ٢٧٩) .
(٢) عيون الأخبار (١/ ٢٧٩) ، والعقد الفريد (٢/ ٤١٤) .
(٣) العقد الفريد (٢/ ٤١٤) .

ـ ومن ثمرات ألباب ألبّاء الشّعراء في امتداحِ الحياء ، ما قاله أحدُ فضلائهم :

ورجِّ الفتىٰ ما دامَ حياً فإنَّه إلىٰ خيرِ حالات المنيبِ يصيرُ

ـ واعتبرَ عونُ بنُ عبدِ اللهِ الحياءَ وبعضَ مكارمِ الأخلاق من الإيمان فقال : الحياء ، والحلم ، والصمت من الإيمان[1] .

ـ والحياءُ سمةُ الكرامِ العظامِ ، وهو شيمةُ كلِّ كريم ، ولله درُّ مَنْ قال :

ما إنْ دعاني الهوىٰ لفاحشةٍ لأنّها في الحياءِ والكرمِ
ولا إلىٰ محرم صدوق يرىٰ ولا مشتْ بي لريبة قدمي

ـ وقال الأصمعي : سمعتُ أعرابياً يقول : مَنْ كساهُ الحياءُ ثوبَهُ ، علىٰ الناس عيبه .

ـ وامتدحَ أميةُ بن أبي الصلت عبد الله بن جدعان بالحياء بقصيدة مشهورة منها :

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٠٤) .

أأذكرُ حاجتي أم قد كفاني حياؤك إنَّ شيمتكَ الحياءُ
وعلمُك بالأمورِ وأنتَ حرٌّ لك الحسبُ المؤثّل والثّناءُ

ـ وفي أقوالِ الصحابةِ الكرامِ رضوانُ الله عليهم زهراً يعبق بأرقّ أنسام العبير ، التي يتضوعُ من بينِ أردانها مسك الحياء ، ومما يجري مجرىٰ الحكمةِ ، منْ أقوالهم رضي الله عنهم ما أُثِرَ عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ في الحياء وذهابه ، وأضرار ذهابه منَ العبد ، قال : إنَّ اللهَ إذا أرادَ بعبدٍ هلاكاً ، نزعَ منه الحياء ، فإذا نزعَ منه الحياء ، لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً ، فإذا كان مقيتاً ممقتاً ، نزع منه الأمانة ، فلم تلقه إلا فظاً غليظاً ، فإذا كانَ فظاً غليظاً ، نزع ربقَ الإيمان من عنقه ، فإذا نزع ربقَ الإيمان من عنقه لم تلقه إلا شيطاناً لعيناً ملعناً[1] .

ـ ولنستمعْ إلىٰ صفة الحيي والحياءِ عند الفاروقِ عمرَ ـ رضي الله عنه ـ حيث التقىٰ سرُّ الحياء فيقول : مَن استحيا

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٠٤) .

اختفىٰ ، ومن اختفىٰ اتقىٰ ، ومَن اتقىٰ وُقي[1] .

ـ وقال الجراح بنُ عبدِ الله الحكمي ـ وكان فارس أهل الشام ـ : تركتُ الذنوبَ حياءً أربعين سنة ، ثم أدركني الورع[2] .

ـ قال بعضُ الفضلاء محققاً هذا المعنىٰ : رأيتُ المعاصي نذالة ، فتركتُها مروءة ، فاستحالتْ ديانة .

ـ وفي دعوةٍ حلوةٍ إلىٰ ورعِ الحياء ، وحياء الورع يقولُ الفضيلُ بن عياض : تغلقُ بابك ، وترخي سترك ، وتستحي من النّاس ، ولا تستحي منَ القرآنِ الذي في صدرك ، ولا تستحيي من الجليلِ الذي لا يخفىٰ عليه خافية .

ـ ونصحَ بعضُ السلفِ ابنه ، وأبانَ له فائدةَ الحياءِ فقال : يا بني ، إذا دعتك نفسك إلىٰ كبيرة ، فارمِ ببصركَ إلىٰ السماء ، واستحِ ممن فيها ، فإنْ لم تفعلْ فارمِ ببصركَ إلىٰ

---

(١) جامعُ العلوم والحكم (١/ ٥٠١) .
(٢) سيرُ أعلام النبلاء (٥/ ١٩٠) .

الأرض ، واستحِ ممن فيها ، فإن كنتَ لا ممنْ في السماء تخافُ ، ولا ممن في الأرضِ تستحي ، فاعدد نفسك في عدادِ البهائم[1] .

ـ ومن كلماتِ أمنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ في الحياءِ ومكارمِ الأخلاقِ قولها وقد عدّتِ الحياءَ رأسَ المكارم فقالت : مكارم الأخلاقِ عشرة : صدقُ الحديث ، وصدقُ اللسان ، وأداءُ الأمانةِ ، وصلةُ الرّحم ، والمكافأةُ بالصّنيع ، وبذلُ المعروفِ ، وحفظُ الذمام للجار ، وحفظ الذمام للصاحب ، وقِرىٰ الضّيف ، ورأسُهن الحياء[2] .

ـ ويصفُ لنا أبو موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ حياءَهُ منَ اللهِ فيقول : إنّي لأدخلُ البيتَ المظلمَ أغتسلُ فيه منَ الجنابة ، فأحني فيه صلبي حياءً من ربي[3] .

---

(١) المستطرف (١/ ١٢٧) .
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق .

ـ وقال بعضهم : الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون في الوعاء .

ـ وقال غيره : الحياءُ دليلُ الخير كله .

ـ ومن كلامِ بعضِ الحكماء : عمارةُ القلب بالهيبة والحياء ، فإذا ذهبا من القلبِ لم يبقَ فيه خير .

ـ وقال ذو النون : الحياء وجود الهيبة في القلب .

ـ وقال السري : إنَّ الحياءَ والأنسَ يطرقانِ القلبَ ، فإن وجدا فيهِ الزهدَ والورعَ ، وإلا رحلا .

ـ وقال الفُضيلُ بن عياض : خمسٌ من علاماتِ الشقوة : القسوةُ في القلبِ ، وجمودُ العينِ ، وقلةُ الحياء ، والرغبةُ في الدُّنيا ، وطولُ الأمل .

ـ وقال بعضُ الفضلاء الأدباء : خَفِ اللهِ علىٰ قدر قدرته عليك ، واستحي منه علىٰ قدر قربه منك .

ـ ومن الأقوالِ الرائعةِ في الحياء قولهم : مَنْ جمعَ بينَ

الحياء والسّخاء ، فقد أجادَ الخلةَ إزارها ورداءها[1] .

ـ وسأل يحيىٰ بن خالد رجلاً عن ابنه فقال : تركتهُ وماءُ الحياءِ يتحدّر من أساريرِ وجهه[2] .

ـ وقال كعب : استحيوا منَ اللهِ في سرائركم ، كما تستحيون منَ الناس في علانيتكم .

ـ وقيل : مَنْ يستحي منَ النّاس ، ولا يستحي من نفسه ، فلا قَدْر لنفسه عنده .

ـ وقال الشاعر :

إذا كانَ ربي عالماً بسريرتي فما النّاس في عيني بأعظمَ من ربي

ـ وفي المثل : خلاؤك أقنىٰ لحيائِك ؛ والمعنىٰ : إذا خلوتَ في منزلكَ ، وتركتَ غشيانَ الناسِ فقد لزمتَ الحياء[3] .

---

(١) انظر : محاضرات الأدباء (١/ ٢٨٤) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) جمهرة الأمثال (١/ ٣٤٢) .

الفصل الثالث

من قصص الحياءِ في التراثِ

فيما يلي قصة أوردها أبو الفرج المعافىٰ بن زكريا النهرواني في كتابهِ المشهور الجميل « الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي » وهذه القصة مدارها حول الحياء ، ولكنّ عنصرَ المفاجأةِ غريبٌ فيها ؛ وسأذكرُ القصةَ كما وردتْ تماماً دونَ تعليق ، لأنَّ في النَّفس أشياءَ من أمثالِ هذهِ القصص ، ـ ولكنّي أوردتُها لطرافتها ـ وهذه القصة بعنوان : يستحيي من النّهر .

ـ ذكر النهرواني بسندهِ عنْ ستة رجالٍ ، ثم عن كعب الأحبار قال :

ـ إنَّ رجلاً من بني إسرائيلَ أتىٰ فاحشةً ، فدخلَ نهراً يغتسلُ فيه ، فناداهُ الماءُ : يا فلان ألا تستحيي ، ألَمْ تتبْ من هذا الذنب ؛ فقلتَ إنك لا تعودَ فيه ؟!!

فخرجَ منَ الماءِ فزِعاً وهو يقول : لا أعصي الله .

ـ فأتىٰ جبلاً فيه اثنا عشر رجلاً يعبدون اللهَ ، فلم يزلْ معهم حتىٰ تخطوا موضعهم ، فنزلوا يطلبونَ الكلأ ، فمرّوا علىٰ ذلك النّهر ، فقال الرجل : أما أنا فلستُ بذاهب معكم! قالوا له : لمَ ؟

قال : لأنَّ ثمَّ مَنْ قد اطّلع منّي علىٰ خطيئة ، فأنا أستحيي منه أن يراني ، فتركوه ومضوا ، فناداهمُ النّهرُ : يا أيُّها العبّاد ؛ ما فعلَ صاحبُكم ؟!

قالوا : زعمَ لنا أنَّ ها هنا مَنْ قد اطّلع منه علىٰ خطيئة ، فهو يستحيي منه أنْ يراه .

قال : يا سبحان الله! إنَّ بعضَكم ليغضبُ علىٰ ولده ، أو

علىٰ بعضِ قراباته ، فإذا تابَ ورجعَ إلىٰ ما يحبُّ أحبَّه ؛ وإنَّ صاحبَكم قد تابَ ، ورجعَ إلىٰ ما أحبُّ فأنا أحبُّه ؛ فأتوه فأخبِروه ، واعبدوا اللهَ علىٰ شاطئي .

ـ فأخبروه ، فجاء معهم ، فأقاموا يعبدونَ الله زماناً ، ثُمَّ إنَّ صاحبَ الفاحشةِ توفي ، فناداهم النّهر : يا أيّها العبّاد والعبيد الزّهاد اغسلوه مِنْ مائي ، وادفنوه علىٰ شاطئي حتىٰ يُبعثَ يوم القيامةِ من قربي ، ففعلوا به ذلك ، وقالوا : نبيتُ ليلتنا هذه علىٰ قبره نبكي ، فإذا أصبحنا سِرْنا .

ـ فباتوا علىٰ قبره يبكون ، فلما جاءَ وجهُ السَّحَرِ ، غشيهم النُّعاسُ ، فأصبحوا وقد أنبتَ اللهُ علىٰ قبره اثنتي عشرة سَرْوة ، فكانَ أوّلَ سَرْوٍ أنبته اللهُ علىٰ وجه الأرض ، فقالوا : ما أنبت هذا الشّجرُ في هذا المكان إلا وقد أحبَّ عبادتنا فيه .

ـ فأقاموا يعبدونَ اللهَ علىٰ قبره ، كلّما ماتَ منهم رجلٌ دفنوه إلىٰ جانبه ، حتّىٰ ماتوا بأجمعهم .

ـ قال كعب : فكانتْ بنو إسرائيل يحجّون إلىٰ قبورهم!!!![1]

* * *

(١) انظر الجليس الصالح الكافي (٢/ ٣٦١ و ٣٦٢) ، تحقيق د . محمد مرسي الخولي ، عالم الكتب ، بيروت ط ١٩٩٣ ، وسأترك محاكمة هذه القصة للقارىء ، مع تذكيري إياه بأنها من الخرافات والأساطير!!! ولكني أوردتها للعبرة .

الباب الرابع

الحياءُ في ضوءِ القرآنِ العظيم

الفصل الأول : دلائلُ الحياءِ في آي القرآن

الفصل الثاني : معنىٰ الحياءِ في حق الله عز وجل

الفصل الثالث : اللهُ الحييُّ

الفصل الأول

دلائلُ الحياءِ في آي القُرآنِ

مادةُ « حيي » من الموادِ التي كثُرت اشتقاقاتُها في كتابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، فقد وردت في (٤٨) صيغة توزعتْ في آياتِ القرآنِ الكريمِ بين سُورِه المكيّة والمدنيّة ، حيث وردت (١٠٨مرات) ، ومنها اشتقاق الحياء الذي وردَ في تسعةِ مواضع ، وفي خمسِ صيغ ، وهو مدار تعليقنا في هذا الفصلِ الكريمِ الطيبِ بإذن الله .

ـ جاءت الصِّيغُ الخمسُ بلفظ : نستحيي ، يستحيون ، يستحيي ، استحيوا ، استحياء .

ـ وجاءت كلمة : استحيى ، واستحياء ، على معنيين :

أ ـ الاستحياء الذي هو منَ الحياءِ ، بمعنىٰ الخجل

والاحتشام وفعله لازم . والاستحياءُ المسندُ إلىٰ اللهِ معناهُ ترك الفعل .

ب ـ استحياهُ استحياءً : أبقى حياته وتركَ قتله ، وفعله متعدٍّ .

ـ وسنعرض المعاني السّابقة فيما يلي حسب معانيها في القرآن الكريم ، لتتوضحَ معالمُ الحياءِ وصُورهِ في الأذهان ، ولتنقش آثاره في القلوب ، ليكون خلُقاً وسلوكاً لنا .

ـ فلفظ نستحي : جاء في قولهِ عَزَّ وجَلَّ في قصةِ فرعون : ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ [الأعراف : ١٢٧] .

وتعني هنا أن فرعون قال : نبقي حياتهنّ ، ونتركُ قتلهنّ ، ونستبقي نساءهم للاستخدام كما كنّا نفعل به .

ـ وذكر السّعدي في تفسيره معنىٰ هذه الآية فقال : نستبقيهنّ فلا نقتلهن ، فإذا فعلنا ذلك ، أمنّا كثرتهم ، وكنّا مستخدمين لباقيهم ، ومسخرين لهم علىٰ ما نشاءُ من الأعمال[1] .

---

(١) تفسير السعدي (ص ٢٦٣) مؤسسة الرسالة ط ١ ١٩٩٦م .

ـ وجاءت لفظة يستحيون في مواضع ثلاثةٍ بمعنىٰ بقاء الحياة ، قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٩] . و [الأعراف : ١٤١] . و [إبراهيم : ٦] . والمعنىٰ هنا يبقون حياتهن فلا يقتلونهنّ .

ـ وأما لفظ يستحيي فقد ورد في مواضعَ أربعة ، في ثلاثة منها ورد بمعنىٰ الحياء ؛ ومرة بمعنىٰ الحياة .

ـ ففي معنىٰ الحياء ، جاء اللفظ في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : ٢٦] . والمعنىٰ هنا من الحياء ، ويُرادُ به أنَّه لا يتركُ ضربَ المثل .

ـ وفي قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] . وهو هنا من الحياء ، بمعنىٰ الخجل والاحتشام .

ـ وفي قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] . من الحياء ، ويُراد به أنَّه لا يترك تقرير الحق .

ـ أما قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ [القصص : ٤] . فالمعنىٰ هنا من الحياة ؛ أي يبقي حياتهنّ .

ـ وجاءت لفظة استحيوا من الإحياء وإبقاء الحياة في قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾ [غافر : ٢٥] .

ـ أما لفظة استحياء فقد جاءت بمعنىٰ الحياء والخجل والاحتشام في وصف فتاة مدين في قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ [القصص : ٢٥] . ومشية هذه المرأة علىٰ هذهِ الصورة دليلٌ علىٰ أخلاقها الحسان ، إذ الحياءُ منَ الأخلاقِ الفاضلةِ ، وخصوصاً من النّساء .

* * *

الفصل الثاني

معنىٰ الحياء في حقِّ الله عَزَّ وجَلَّ

وردتْ معاني الحياء مقترنةً بلفظِ الجلالةِ في أكثرَ من موضعٍ في كتابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، فكيفَ يكونُ معنىٰ الحياءِ في حقِّ اللهِ وكيفَ نفهمه ؟!

ـ ولكي تتوضحَ الصورة نقرأُ قولهُ عَزَّ وجَلَّ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾[1] [البقرة : ٢٦] .

---

(١) أوضحَ سليمانُ بن عمر العُجيلي الشهيرُ بالجملِ في كتابه الفتوحات الإلهية في شرحه وتعليقه علىٰ هذه الآية ما مفاده فقال :

يستحيي : بياءين : أولاهما : عين الكلمة ؛ والثانية : لامها ؛ والحاء : فاؤها . =

فالمناسبةُ هنا تقتضي أنَّ القرآنَ العظيمَ هو كلام الله ، لا يتطرأ إليه شك ، أو شبهة ؛ وهو كتابٌ معجزٌ فيه بيانُ الإعجاز ، وإعجازُ البيان ، أنزله ربّ العالمين على محمد

= وقد ورد حيي واستحيا بمعنى واحد . والمشهور استحيا يستحيي ومُستحيىٰ منه من غير حذف . وقد جاء استحىٰ يستحي ، فهو مستحٍ ؛ مثل : استقىٰ يستقي ، فقد قرىء به .

والحياء لغة : تَغيُّرٌ وانكسار يعتري الإنسانَ من خوف ما يُعاب به ، واشتقاقه من الحياة .

ومعناه علىٰ ما قاله الزمخشري : نقصت حياته واعتلت مجازاً . واستعماله هنا في حق الله تعالىٰ عن الترك .

وجعله الزمخشري من باب المقابلة ؛ يعني أنَّ الكفار لما قالوا : أما يستحي رب محمد أن يضربَ المثل بالمحقرات ، قُوبل قولهم ذلك بقوله : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ ﴾ [البقرة : ٢٦] ويضرب معناه : يُبين فيتعدىٰ لواحد . وقيل معناه : التصيير : فيتعدىٰ لاثنين نحو : ضربتُ الطين لبناً . وقال بعضهم : لا يتعدىٰ لاثنين إلا مع المثل خاصة . (الفتوحات الإلهية ١/ ٥٢ و ٥٣) مختصراً . دار الفكر طبعة ١٩٩٤ م .

خاتم الأنبياء والمرسلين ، وتحدّاهم أنْ يأتوا بمثل سورة من أقصر سوره ، وذكر هنا شبهةً أوردها الكفّار للقدحِ فيه ، وهي أنَّه جاء في القرآنِ الكريم ذِكرُ : النحل ، الذباب ، العنكبوت ، النّمل ، . . الخ . . . وهذه الأمور لا يليقُ ذكرها بكلام الفصحاء ، فضلاً عن كلامِ ربِّ العالمين ؛ فأجابَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عن هذهِ الشبهة ، وردّ عليهم بأنَّ صغر هذهِ الأشياء لا يقدحُ في فصاحة القرآن ، ولا في إعجازه ، إذا كان ذِكرُ المثل مشتملاً علىٰ حكمٍ بالغةٍ .

ـ قال الزمخشري : أي لا يتركُ ضربَ المثل بالبعوضةِ ترك من يستحيي من ذكرها لحقارتها[1] .

ـ وأما سببُ نزولِ هذه الآيةِ ، فيقولُ العلماءُ : لما ذكرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ الذُّباب والعنكبوت في كتابه ، وضربَ للمشركينَ بهِ المثل ، ضحكت اليهودُ وقالوا : ما يشبه هذا كلام اللهِ وما أرادَ بذكرِ هذه الأشياء الخسيسة ؟! ؛ فأنزلَ اللهُ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) الكشاف (١/ ٨٥) .

لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة : ٢٦] .

ـ وذكرَ الواحديُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ الحسنَ وقتادةَ قالا : لما ذكرَ اللهُ الذبابَ والعنكبوتَ في كتابهِ ، وضربَ للمشركين به المثلَ ، ضحكتِ اليهودُ ، وقالوا : ما يشبهُ هذا كلامَ اللهِ ، فأنزلَ اللهُ هذه الآية .

ـ وذكر الواحديُّ عن ابنِ عبّاس في قوله تعالىٰ : ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة : ٢٦] . قال : وذلك أنَّ اللهَ ذكرَ آلهةَ المشركين فقال : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ [الحج : ٧٣] . وذكرَ كيدَ الآلهة فجعله كبيتِ العنكبوت ، فقالوا : أرأيتَ حيثُ ذكرَ الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن علىٰ محمد ، أي شيء يصنع بهذا ، فأنزلَ اللهُ هذه الآية[1] .

ـ والمعنىٰ كما ذكرَ الشيخ السّعدي في تفسيره للآية :

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص ١٢٧) دار الكتب العلمية ـ بيروت ط ١ ١٩٩١ م .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا ﴾ [البقرة : ٢٦] أي : أيَّ مثل كان ﴿ بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ لاشتمالِ الأمثال علىٰ الحكمة ، وإيضاح الحق ، واللهُ لا يستحيي من الحق ، وكأنَّ في هذا جواباً لمن أنكر ضربَ الأمثالِ في الأشياءِ الحقيرةِ ، واعترضَ علىٰ اللهِ في ذلك ، فليس في ذلك محل اعتراض ، بل هو من تعليم اللهِ لعباده ، ورحمته بهم ، فيجب أن تتلقىٰ بالقبول والشكر[1] .

ـ إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لا يستنكفُ ولا يمتنعُ عن أنْ يضربَ أي مثلٍ كان ، بأي شيء كان ، صغيراً كانَ أو كبيراً ، ﴿ بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ ، فسواء كان هذا المثل بالبعوضة ، أو بما هو دونها في الحقارة والصِّغر ، فكما لا يستنكف عن خلقها ، كذلك لا يستنكف عن ضربِ المثل بها .

ـ قال قتادة رحمه الله : إنَّ اللهَ لا يستحي من الحق أن يذكرَ شيئاً ما قلَّ أو كثُر ، وإنَّ اللهَ حينَ ذكرَ في كتابهِ الذُّبابَ

---

(١) تفسير السعدي (ص ٢٩) .

والعنكبوتَ ، قال أهلُ الضلالة : ما أرادَ اللهُ منْ ذكر هذا ، فأنزل الله : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾[1] [البقرة : ٢٦] .

ـ وقال ابنُ كثير في معنىٰ الآيةِ السابقةِ ما مفادُه وملخصهُ منْ أقوالِ الصحابةِ والتابعين والعُلماء والمفكرين : قال الربيعُ بن أنس : هذا مثلٌ ضربه اللهُ للدنيا إذ البعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا سمنتْ ماتت ، وكذلك مثلُ هؤلاء القوم الذين ضربَ الله لهم هذا المثل في القرآن ، إذا امتلؤوا منَ الدُّنيا رياً أخذهمُ اللهُ تعالىٰ عند ذلك .

ـ وقال مجاهد في تفسير الآية : الأمثالُ صغيرُها وكبيرُها يؤمنُ بها المؤمنون ، ويعلمونَ أنَّها الحقُّ من ربهم ، ويهديهم الله بها[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير (ص ٨٤) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٨٤ و ٨٥) ملخصاً ؛ وانظر إن شئت تفسير القرطبي والخازن والبغوي وغيرها من التفاسير .

ـ ونفهمُ من قوله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب : ٥٣] . أنَّ الأمر هنا شرعيٌّ ، ولو كان يتوهم أنَّ في تركه أدباً وحياءً ، فإنَّ الحزمَ كلَّ الحزمِ ، اتباعُ الأمر الشرعي ، وأن يجزمَ أنَّ ما خالفه ليسَ من الأدبِ في شيء ، واللهُ تعالىٰ لا يستحيي أن يأمرَكم بما فيه الخير لكم ، والرفق لرسوله كائناً ما كان .

ـ فالله عَزَّ وجَلَّ حييٌّ كريم ، وصفاته لا تشبهُ صفات البشر ؛ أخرج الإمام أحمد وغيره عن سلمان رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « إنَّ الله تعالىٰ حيي كريمٌ ، يستحي إذا رفعَ العبدُ إليهِ يديه أن يردّهما صفراً ، حتىٰ يضعَ فيهما خيراً »[1] .

* * *

(١) أخرجه أحمد (٥/٤٣٨) ، وأبو داود في الصلاة برقم (١٤٨٨) ، والترمذي في الدعوات برقم (٣٥٦٦) ، وابن ماجه في الدعاء برقم (٣٨٦٥) ، والحاكم (١/٤٩٧) .

الفصل الثالث

اللهُ الحييُّ

الحياءُ صفةٌ يحبُّها اللهُ عَزَّ وجَلَّ ، والحياءُ أيضاً من صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، والحياءُ صفةٌ يتحلّىٰ بها المؤمنُ ، أما حياؤه عَزَّ وجَلَّ ؛ فهو وصفٌ يليقُ به ، وليس حياؤه كحياءِ المخلوقين الذي هو تغيُّرٌ وانكسار يعتري الشخصَ عند خوفِ ما يُعاب أو يُذم ، بل هو تركُ ما ليس يتناسبُ مع سعةِ رحمتهِ وكمالِ وجوده ، وكرمه وعظيم عفوه وحلمه ، فالعبدُ يجاهرُه بالمعصية ، مع أنَّه أفقرُ شيءٍ إليه ، وأضعفه لديه ، ويستعينُ بنعمهِ علىٰ معصيته .

ـ ولكنَّ الله عَزَّ وجَلَّ مع كمالِ غِناه ، وتمامِ قدرتهِ عليه يستحي من هتكِ ستره وفضيحته ، فيستره بما يهيِّئه له من

أسبابِ الستر ، ثُمَّ بعدَ ذلك يعفو عنه ويغفر ، كما جاءَ في الصحيحِ عن ابنِ عمر رضي الله عنهما : « إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يدني المؤمنَ فيضعَ عليه كنفهُ ، ثُمَّ يسأله فيما بينه وبينه : ألمْ تفعلْ كذا يوم كذا ؟ حتىٰ إذا قرّره بذنوبه ، وأيقنَ أنَّه قد هلكَ ، قال له : سترتُها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرُها لك اليوم »[1] .

ـ وكذلك يستحي سبحانه وتعالىٰ من ذي الشيبةِ في الإسلام أنْ يعذبه ، ويستحي ممن يدعوه ويمدُّ إليه يديه أنْ يردّهما خاليتين ، وهو من أجلِ أنَّه حيي ستير ، يحبُّ أهلَ الحياءِ ، والستر من عبادهِ ، فمنْ سترَ مسلماً ، سترَ اللهُ عليه في الدُّنيا والآخرة ، ويكرهُ المجاهرةَ بالفسوقِ ، والإعلان بالفاحشة .

ـ قال ابنُ قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ في منظومة له ومنها :

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٦٦) ، ومسلم في السلام (٢١٧٦) .

وهو الحييُّ فليسَ يفضحُ عبدَه عند التّجاهرِ منه بالعصيان
لكنّه يُلقي عليه ستـرهُ فهو الستيرُ وصاحبُ الغُفران

ـ يقول الشيخُ عبد الرحمن السعدي في تعليقٍ له علىٰ هذين البيتين : وردَ في السُّنةِ وصفه تعالىٰ بالحياءِ ، كقوله ﷺ : « إنَّ اللهَ حييٌّ يستحي من عبده إذا مدَّ يديه إليه أن يردهما صفراً »[1] . وكقوله عليه السلام في شأنِ النَّفرِ الثلاثةِ الذين وقفوا علىٰ مجلسه : « أما أحدهم فأقبلَ فأقبلَ اللهُ عليه ؛ وأمّا الآخر فاستحيا فاستحيا اللهُ عَزَّ وجَلَّ منه ، وأمّا الثالثُ فأعرضَ فأعرض اللهُ عَزَّ وجَلَّ عنه »[2] .

ـ إنَّ من أمقتِ الناسِ عند اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، مَنْ باتَ علىٰ معصيته والله يسترُه ، ثُمَّ إنَّ الرجل يصبحُ فيكشفُ سترَ اللهِ عليه ، ويفخر بالمعصيةِ ، ولا يستحي من ذكرها ، وقد توعّد اللهُ الذين يحبون أن تشيعَ الفاحشةُ في صفوف

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

المؤمنين ، توعّدهم بألوان وأليم العذاب ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النور : ١٩] .

ـ وكذلك نجدُ الصورةَ نفسها في الحديثِ الشريف ، حيثُ يقولُ ﷺ : « كلُّ أمتي معافىٰ إلا المجاهرين ، وإنَّ من المجاهرة أن يعملَ الرجلُ بالليلِ عملاً ثم يصبحُ وقد سترَ اللهُ عليه ، فيقول : يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد باتَ يسترهُ ربّه ، ويصبحُ يكشف ستر الله عليه »[1] .

ـ إنَّ منَ الناسِ مَنْ يفعلونَ السُّوءَ سراً ، ويصبحون وقد سترهم اللهُ عَزَّ وجَلَّ ، فيأتونَ ويتحدثونَ بين النّاس بما اقترفوه من إثم ؛ وربما يتفاخرون بذلك ، وهذا قِحةٌ وتهتُّك ، وهو يشبهُ المجاهرةَ العلنية بفعل السُّوء ، ولا يكونُ منْ ذي الحياء .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب برقم (٦٠٦٩) ، ومسلم في الزهد والرقائق برقم (٢٩٩٠) .

ـ إنَّ مَنْ لا حياء عنده هانَ عليهِ أنْ يجاهرَ بما فعلَ منْ قبيح المجون ؛ والمجونُ صفةُ مَنْ لا خلاقَ له ، ولا فضيلة عنده تردعه وتمنعه عن القبائح .

ـ سُئِلَ أحدُ أهلِ المجونِ ممن طرحَ الحياءَ جانباً : كيف أصبحت ؟!

قال : أصبحتُ لا فرقَ عندي مدحني الناسُ أو ذموني .

فقال له السائل : لقد استرحتَ من حيثُ تعبَ الكرام .

ـ أمّا المرءُ الذي يستحي بخطيئته ، ويتستّر فيها ويتوارىٰ ، ويعلمُ أنَّ اللهَ حييٌّ ستيرٌ يحبُّ الحياءَ والستر ، ولا يتحدثُ بها أمام النّاسِ ، فإنَّ العافيةَ مرجوةٌ له برحمةِ اللهِ وتوفيقه ، لأنَّ حياءَه الذي منعه منَ المجاهرة ، وجعله يتوارىٰ ويتستر ، عنصرٌ خُلقيٌّ كريم ، سيأخذُ بيده إلىٰ مقام الاستحياء من اللهِ ، فيتركُ القبائحَ كلّها في سرّه وعلانيته ، لأنَّه يعلمُ عِلمَ اليقينِ أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ مطّلعٌ عليه ، مراقبٌ له ، وسيحاسبهُ علىٰ أعماله حساباً عادلاً .

* * *

الباب الخامس

الحياء في القصة القرآنية
بين الدرس والقدوة

الفصل الأول : استحياء فتاةِ مَدْين

الفصل الثاني : استحياء الحبيب الأعظم ﷺ

الفصل الأول

استحياء فتاةِ مَدْين

في معرضِ الحديثِ عن نبيِّ اللهِ موسىٰ ـ عليه السلام ـ تبرزُ صورةُ امرأةٍ وضيئةِ الأخلاق ، نقية الأثوابِ ، ذكرها ربُّنا عَزَّ وجَلَّ بالحياء ، ووصفَ مشيتها بالاستحياء ، فقال : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص : ٢٥] .

ـ فمن هذهِ الفتاة ؟! وكيفَ كانَ حياؤها ؟! ولمَ أتتْ موسىٰ عليه السلام ؟! ولكي نجيبَ عنْ هذهِ الأسئلة ، علينا أنْ نعودَ قليلاً إلىٰ زمنٍ قريبٍ منْ حياةِ نبي اللهِ موسىٰ ، كيما تتوضحَ صورةُ حياءِ وحياةِ هذه الفتاةِ التي أثنىٰ عليها ربُّ السّماء .

ـ فقد جاءَ في القرآن الكريمِ أنَّ نبي الله موسىٰ قد خرجَ من مصرَ خائفاً يترقبُ ، وذلك بعد أنْ وكز قبطياً فمات ، وحدثَ أنَّه قد أرادَ ثانيةً نصرةَ الرجلِ الذي من شيعته ، فقال له الرجل : لقد قتلت نفساً بالأمس ، والآن تريدُ أن تقتلني ، ثم إنَّ هذا أخبر النّاس بالقصة ، أو علموا مِنْ خطابهِ لموسىٰ بحقيقةِ أمرِ مقتلِ الرجلِ القبطي بالأمس ، فائتمروا لقتله . ولكنّ عنايةَ اللهِ ورحمته كانت تحفُّ موسىٰ ، فقيّض له رجلاً يخبره بما أجمعَ عليه القومُ ، ونصحه بالخروج من مصر ، فخرجَ وهو خائفٌ يترقب ، وهو ينادي ويناجي الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص : ٢١] .

ـ واستجابَ اللهُ مناجاته ، فنجّاهُ منَ القومِ الظالمين ، وخرجَ منْ مصرَ يدعو اللهَ أن يهديه سواءَ السبيل ، فألهمه اللهُ أن يسلكَ طريق مَدْينَ ، وكان بينه وبين مصرَ مسيرة ثمانية أيّام .

ـ ووصل مدين ، وهناك ؛ وعلىٰ مقربة من المدينة ، وجد جماعةً منَ الناس يسقون رعاءَهم وأنعامهم ، فوقف ـ عليه

السلام ـ وهو ينظرُ إليهم ، وقد أرهقَهُ الجوعُ والتّعب ، وأضناهُ المسيرُ والسّفرُ .

ـ وعلىٰ مقربة من البئر[1] ، حانتْ منه التفاتة ، فرأىٰ بجانب الناسِ امرأتين يلفُّهما الحياءُ ، وكانتا تقفان بعيداً عنِ القومِ تحبسان غنمهما عن ورودِ الماء ، وكانَ النّاسُ يسقون ، ولكنّ موسىٰ أحبَّ أن يعرفَ جليةَ الأمر ، ونسي تعبه ومشقّة سفره ، وأثاره ما رأىٰ من حالِ وحياء هاتين الفتاتين ، فسعىٰ نحوهما ، وقال لهما في شيءٍ من الإكرام والتّبجيل والاحترام والحياء : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ [القصص : ٢٣] ؟! .

ـ لاحظ ـ عزيزي القارىء ـ كلمة واحدة ، بل جملة بسيطة لطيفة ، سأل بها موسىٰ عن حالِ الفتاتين ، سألهما معاً ليكون الحياءُ أكملَ وأجودَ ، ولم يخصّ واحدةً منهما بالسُّؤالِ ، وهذا من تمامِ الأدبِ ، وكمالِ الفضلِ والشرف .

---

(١) البئر : لفظ مؤنث لا مذكر كما يظن بعض الناس .

ـ وبالمنطق نفسه أجابت كلا الفتاتين ، ولم تجبه واحدة ، فقالتا جملةً واحدة ، شرحتا من خلالها له حالتهما وحياتهما ، فقالتا : ﴿ لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٣] .

ـ وهناك تقدّم موسىٰ ـ عليه السلام ـ تقوده مروءته ، ليساعد هاتين الفتاتين في سقاية أنعامهما ، فهما ضعيفتان عن مزاحمةِ الناس ، وهذا أبوهما شيخٌ كبير قد ضعُف عن السقاية وعن مساعدتهما ، وسقىٰ لهما موسىٰ ، ولكنْ كيفَ سقىٰ ، والبئرُ تُغطىٰ بصخرة عظيمة ؟

ـ قال المفسّرون : كانَ الرّعاءُ إذا سقوا وفرغوا من ذلك ، غطّوا فمَ البئر بصخرةٍ عظيمةٍ لا يرفعها إلا جماعة ، فتجيءُ هاتان المرأتان فتسقيان غنمهما في فضل أغنام النّاس ، فلمّا كان ذلك اليوم ، جاء موسىٰ ـ عليه السلام ـ فرفعَ تلكَ الصّخرة وحده ، أو وكزها برجله ، ثم استقىٰ لهما ، وسقىٰ غنمهما ، وردَّ الحجرَ كما كان .

ـ قال أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ :

وكان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استقىٰ ذَنُوباً[1] واحداً فكفاهما[2] .

ثُمَّ إنَّ موسىٰ ـ عليه السلام ـ جلسَ في الظل وقال : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص : ٢٤] . ويبدو أنَّ المرأتين قد سمعتا ما قال موسىٰ ، فانصرفتا إلىٰ أبيهما ، وأخبرتاه بصنيع موسىٰ ، وما كان من أمره ، وأنَّه سقىٰ لهما بسرعة .

ـ وهنالكَ قالَ الشيخ الكبيرُ لإحداهما : اذهبي إلىٰ هذا الرجلِ الشَّهم ذي المروءة والفتوة ، وادعيه لنكافئَه علىٰ صنيعه .

ـ وهنا يبدو الحياءُ ممثّلاً بأجملِ صُوره ، وأجمل ما تتمثل به امرأة في كلّ زمانٍ ومكان ، وكلّ عصر ومصر ، وكلّ وقت

---

(١) ذنوباً : الذنوب : الدلو .

(٢) انظر : قصص الأنبياء (ص ٣١٧) ، والدر المنثور (٦/ ٤٠٥) ، ونهاية الأرب (١٣/ ١٨٤ و ١٨٥) مع الجمع والتصرف .

ومناسبة ، وذهبت الفتاة ممتثلة أمر أبيها كما ذكر ربّنا جل وعلا : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ [القصص : ٢٥] .

وهذه المشيةُ هي مشية حرائر النساء وشريفاتهن ، جاءت تدعوه لتكافئه وهي رسول أبيها ، ولم تكن كما قال سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ : ليست بسلفع من النساء خراجة ولاّجة .

ـ نعم لقد كانت مستحيية في مشيتها استحياء النساء العاقلات الفاضلات ، وهي ما أورد أبو السُّعود في تفسيره : بأنها تمشي غير متبخترة ولا متثنية[1] .

ـ وذكرَ عمر بنُ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بأنها كانت ساترة وجهها بثوبها مبالغة في الحياء ، لأنَّ سترَ الوجهِ غير واجب عليها .

ـ لقد جاءته هذه الفتاةُ الحييةُ ابنةُ الشيخِ الصّالح بسرعةٍ فائقةٍ ، بحيث إنَّ موسىٰ لم يزلْ يستظلُّ تحت الشجرة .

---

(١) تفسير أبي السعود (٧/ ٩) .

ـ ووقفتِ الفتاةُ الحييّةُ بقربِ موسىٰ ـ عليه السلام ـ ثم قالت : ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص : ٢٥] ؛ نعم ، إنَّها كلمةُ حياءٍ ممزوجة بحياء هذه المرأة ، فالقضيةُ كلُّها حياءٌ في حياءٍ في حياء ، لقد صرّحت لموسىٰ بكلّ حياءٍ واستحياء بأنَّ أباها هو الذي يدعوه ليكافئه ، لئلا يوهم كلامها ريبة ، وهذا من تمامِ حيائها وصيانتها وكمالِ مكارمِ أخلاقها ، وحسنِ منبتها ومدخلها ومخرجها .

ـ لقد كانت هذهِ المرأةُ الحييةُ خيرَ رسولٍ لأبيها في رسالةِ الحياءِ والعفاف ، والطُّهر والنّقاء ، فهي لم تزدْ عمّا قاله لها أبوها حرفاً واحداً ، وإنَّما أدّتْ ما أمرها به في حياء واستحياء ، ووضوح وبساطة من غير ريبة ، ولاشك يساور النّفس .

ـ ومـنَ العجيـب أنَّ هـذه الفتـاة ، كـانـت تمشـي مشيـة الاستحياء ، وهي المشية التي تزينُ كلَّ فتاةٍ وكلَّ امرأةٍ في كلّ زمنٍ وعصر ، وكانتْ مشيتُها مشيةَ الفواضلِ الكريمات اللائي

حيثما يلقين الرجال يكُنَّ علىٰ استحياء كامل ، وعفّة زائدة ، في غيرِ ما تبذل ، أو تبرّج ، أو تثنٍّ وإغراء .

ـ ولما وقفتْ أمامَ موسىٰ ـ وهي الحيية العفيفة ـ كانتْ تتحدثُ باتزان وهدوء وحياء ، لم تضطرب ، ولم تتلعثم بكلماتها ، إذ هي ذات ثقة بطهرها وعفافها ، وتحدثت بالقدر المطلوب الموفي للغرض في أدب الحياء ، وحياء الأدب .

ـ واستجابَ موسىٰ ـ عليه السلام ـ لدعوة الشيخ ، وكان حيياً ، فطلب أنْ يمشيَ أمامها ، وترشدُه هي إلى الطريق ، ثم جاء أباها[1] وهو شيخ كبير ، فسلّم عليه ، فردّ عليه السلام

---

(١) اختلف العلماء والمفسّرون في هذا الأب الشيخ مَنْ هو ؟! فقيل : هو شعيب عليه السلام ، وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وذكر آخرون بأنَّ اسمه شعيباً ، لكنه غير شعيب النبي . وقيل : إنَّه ابنُ أخي شعيب ، وقيل : ابن عمه . وقيل : رجلٌ مؤمنٌ من قوم شعيب . وقيل : رجل اسمه : يثرون ، ومن الجدير بالذكر أنَّ القرآن الكريم لم يُشر إلى ذلك وإنما وصفه بأنَّه شيخ كبير صالح .
وأودُّ أنْ أشيرَ هنا إلى حقيقة رائعة : هي أنَّ تقوىٰ وصلاحَ=

ورحَّبَ به ، وسأله عن خبره ، فأخبره موسىٰ قصته ، فقال : ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص : ٢٥] .

ـ وبعد أنْ أكرمه الشيخ الصالح ، قالت تلك الفتاة لأبيها في حكمةٍ وحياءٍ وذكاء : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص : ٢٦] .

ـ نعم لقد كانتْ تلك الفتاةُ في غايةِ الفراسةِ والذكاء ، إذ إنَّ سواطعَ الإلهام قد برقتْ في ذهنها ، فرأتْ منْ أمانةِ موسىٰ وعفّته وحيائه وقوته ما دعاها إلىٰ ذلك ، فصدقت فراستها[1] ، ووافقت خيراً .

= الآباء ينفعُ الأبناء ، فهذا الشيخ الصالح قد هيأ الله له كليمه ونبيّه موسىٰ ، فكان زوجاً لابنته ، وحفظه في شيخوخته ، وكفىٰ بهذا إكراماً له .

(١) قال عبدُ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه : أفرسُ الناس ثلاثة : صاحب يوسف حين قال لامرأته : ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ ؛ وصاحبَةُ موسىٰ حين قالت : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ ؛ وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب . (البداية والنهاية ١/ ٢٤٤) .

ـ ووافق الشيخ علىٰ ذلك ، وزوج موسىٰ ابنته[1] علىٰ أن يأجره ثماني حجج أو عشراً ، وفعل موسىٰ ذلك ، وقضىٰ أتمَّ الأجلين وأكملهما ، ووفىٰ للشيخ بذلك ، وعاشتْ تلكم الفتاةُ الحييةُ في كنف موسىٰ ، لتتابع فيما بعد مراحلَ حياته ، ولتشهد نبوته وفضل اللهِ عليه .

* * *

(١) يقول المفسرون : تزوج موسىٰ الفتاة التي جاءت تدعوه ، وذُكِرَ أنَّ اسمها صافورا .

الفصل الثاني

استحياءُ الحبيب الأعظم ﷺ

نحنُ الآن في رحابِ أميرِ الأنبياءِ وخاتمهم سيدنا وحبيبنا محمدٍ ﷺ ، نعيشُ في هذه الصفحاتِ أويقاتٍ لطيفاتٍ مع حيائهِ ﷺ ، وكيف تحدَّثَ عنه القرآنُ الكريمُ ، وكيف وصفهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بأنَّه يستحي من أصحابه .

ـ كان ذلك يوم أنْ تزوجَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ أمّ المؤمنين زينبَ بنت جحش ـ رضوان الله عليها ـ يومها ظهرَ استحياءُ الحبيب المصطفىٰ ﷺ من بعضِ أصحابه لأنّهم أطالوا الجلوس عنده ، وكان ذلك سبباً في نزول آيةِ الحجاب .

ـ أما قصةُ ذلك الزواج وحياء الحبيب الأعظم ﷺ ، فيرويه لنا أنس بن مالك رضي الله عنه فيما أخرجه عنه البخاري في

صحيحه ، إذ أخرج بسنده عن أنس قال : بُني علىٰ النبي ﷺ بزينبَ بنت جحشٍ بخبزٍ ولحمٍ ، فأرسلتُ علىٰ الطعام داعياً ، فيجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون ، ثم يجيءُ قومٌ فيأكلون ويخرجون ، فدعوتُ حتىٰ ما أجدُ أحداً أدعو .

فقلتُ : يا نبيَّ اللهِ ، ما أجدُ أحداً أدعوه .

قال : « فارفعوا طعامكم » .

وبقي ثلاثةُ رهطٍ يتحدّثون في البيتِ ، فخرجَ النبي ﷺ ، فانطلق إلىٰ حجرةِ عائشة فقال : « السلام عليكم أهلَ البيت ورحمة الله » .

فقالت : وعليك السلام ورحمةُ الله ، كيفَ وجدتَ أهلكَ بارك اللهُ لك ؟ فتقرّىٰ حُجَرَ نسائهِ كلهن ، يقول لهنّ كما يقولُ لعائشة ، ويقُلن له كما قالتْ عائشة .

ـ ثُمَّ رجع النبيُّ ﷺ ، فإذا ثلاثة رهطٍ في البيتِ يتحدثون ، وكانَ النبي ﷺ شديد الحياء ، فخرجَ منطلقاً نحو حجرة

عائشة ، فما أدري آخبرته ، أو أُخبِر أنَّ القومَ خرجوا ، فرجعَ حتى إذا وضع رجلَه في أسكفة الباب داخلةً ، وأخرىٰ خارجة ، أرخىٰ الستر بيني وبينه ، وأُنزلت آيةُ الحجاب[1] .

ـ أما آيةُ الحجاب التي ورد فيها حياءُ النبي ﷺ فهي قولهُ عَزَّ وجَلَّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا

---

(١) هذا حديث من الأحاديث المشتهرة ، المشهورة المنثورة في الصحيح والسنن ، ناهيك شهرته في التفسير ، فقد أخرجه البخاري في (١٥) موضعاً من صحيحه ، أولها في التفسير برقم (٤٧٩١) وكذلك بالأرقام الآتية (٤٧٩٢ و ٤٧٩٣ و ٤٧٩٤ و ٥١٥٤ و ٥١٦٣ و ٥١٦٦ و ٥١٦٨ و ٥١٧٠ و ٥١٧١ و ٥٤٦٦ و ٦٢٣٨ و ٦٢٣٩ و ٦٢٧١ و ٧٤٢١) ؛ وأخرجه مسلم في النكاح برقم (١٤٢٨) ، والترمذي في مواضع برقم (٣٢٧٠ و ٣٢٧١ و ٣٢٧٢) ، وانظر تفسير الطبري (٢٢/ ٣٧) ، والقرطبي (١٤/ ٢٢٤) ، وتفسير ابن كثير (٣/ ٦١٩) وغيرها .

طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾

[الأحزاب : ٥٣] .

ـ لقد ظهر حياءُ النبي ﷺ عندما جلسَ أولئك النّفر الثلاثة الذين استرسلَ بهم الحديث ، ونسوا أنفسهم ، حتىٰ شقَّ ذلك علىٰ رسولِ الله ﷺ كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [الأحزاب : ٥٣] . فكان ﷺ يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدةِ حيائه ﷺ[1] .

ـ وذكر السعدي في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ﴾ [الأحزاب : ٥٣] يعني : أن يقول لكم : اخرجوا ، كما هو جاري العادة أنَّ الناس ـ وخصوصاً أهل الكرمِ منهم ـ

---

(١) عن تفسير ابن كثير (٣/ ٦٢١) بتصرف يسير .

يستحيون أن يُخرِجُوا من مساكنهم[1] .

ـ نعم فالرسولُ ﷺ يستحيي من إخراج أولئك النّفر الثلاثة الذين أخذوا يفيضون بالحديث ، ومنعه حياؤه أنْ يأمرهم بالانصراف أو ينفضّ مجلسهم ، وذلك لخلقه الرفيع ، وقلبه الرحيم ، وحيائه الذي كان عنوانُ وجههِ ﷺ ، مع العلم أنَّ الكلام في بيته كان يضايقه ويثقل عليه ، ويمنعه من قضاءِ كثير من مصالحه وأموره .

ـ وفي قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب : ٥٣] معناه أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ لا يترك بيان الحق ، ولا يمنعه مانع من إظهار الحق ، وتبيانه لكم .

ـ وفي قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب : ٥٦] إشارة لطيفة إلى الانتشارِ بعد الطعام ، وعدم الجلوس بعده ، لأنَّ الوليمةَ قد انتهتْ ، وأهل البيت بحاجة أن يتفرغوا إلىٰ أعمالهم ، لا أن ينتظروا فراغ الثقلاء من أحاديثهم .

---

(١) تفسير السعدي (ص٦١٧) .

ـ قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : هذا أدبٌ أدّبَ اللهُ بهِ الثُّقلاء ، وفي كتابِ الثعلبي : حسبُك من الثُّقلاء أنَّ الشرعَ لم يحتملهم[1] .

---

(١) تفسير القرطبي (١٤/ ٢٢٤) .

ولعلّه من الممتع هنا أنْ نشيرَ إلىٰ أنَّ سماجةَ الثُّقلاءِ قد أُغرِمَ فيها الأدباء والعلماء وصنعوا منها أبواباً لكتبهم ومنهم : ابن قتيبة في عيون الأخبار إذ عقد فصلاً عنوانه : « باب الثقلاء » ؛ وصنع غيره كذلك كابن عبد ربه في العقد الفريد ، وابن عبد البر القرطبي في بهجة المجالس ، والراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء وغيرهم ، كما أنَّ ابن المرزبان قد صنّف كتاباً مستقلاً سمّاه « ذمّ الثقلاء » ، ذكر فيه ما يتمتّع به هؤلاء من خصائص لا تحتملها النّفوس ولا الأبدان .

ـ ومن لطائفِ المعاني في الثقلاء ما جاء عن أبي هريرةَ رضي الله عنه ، فكان إذا استثقل رجلاً قال : اللهم اغفر له ، وأرحنا منه .

ـ وقال بعض الأطباء : لا تجالس الثقلاء فإنا نجدُ في الطّب : مجالسة الثقيل حمّى الروح . =

= ـ وقال الشاعر :

إنـي أجـالـسُ معشـراً نُـوكـى أخفُّهـم ثقيـل
قـومٌ إذا جـالستهـم صدئت بقربهم العقول
لا يفهمـونـي قـولهـم ويـدقُّ عنهـم مـا أقـول

ـ ومرَّ رجلٌ بصديق له ومعه رجل ثقيل ، فقال له : كيف حالك ؟ فقال :

وقـائلٍ كيفَ أنتَ قلتُ لـه هذا جليسي فما ترىٰ حالي ؟!

ـ وقال سهل بن هارون : مَنْ ثقُل عليك بنفسه ، وغمك في سؤاله ، فألزمه أذناً صماء ، وعيناً عمياء . وقيل لجالينوس : بم صار الرجلُ الثقيلُ أثقل من الحملِ الثقيل ؟! فقال : لأنّ الرجل الثقيل إنّما ثِقلهُ علىٰ القلب دون الجوارح ، والحمل الثقيل يستعين فيه المرء بالجوارح . وكان حماد بن سلمة إذا رأىٰ من يستثقله قال : ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ . وقال أحد الشعراء :

أنـتَ يـا هـذا ثقيـل وثقيـل وثقيـل
أنـتَ فـي المنظـر إنسـانٌ وفـي الميـزان فيـل

ـ وهذا باب طويل جميل ، أحببنا أن نجتني بعضَ أطايبه للترويح عن القلوب ، والله من وراء القصد .

الباب السادس

منهج التربية النبوية في الحياء

الفصل الأول : النبيُّ الحييُّ الكريم

الفصل الثاني : تربيةُ الصحابةِ علىٰ مائدةِ الحياء

الفصل الثالث : حقيقةُ الحياء في حديثِ سيد الأنبياء

الفصل الأول

النبي الحييُّ الكريمُ

كان الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ أشدَّ الناسِ حياءً ، وأكثرَهم إغضاءً عن العورات ، لم يواجه أحداً بشيء يكرهه ، فقد روىٰ الشيخان ، وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رسولُ الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها ، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه .

ـ لقد كانَ الحياءُ سمةً بارزة في حياتهِ الشريفةِ ﷺ ، وفي تربيته لأصحابه ، حيث يعلّمهم أدب الحياء ، فكان إذا ما بدرَ من رجلٍ بادرة لا يذكرهُ باسمه ، وإنّما يوري بلفظ : « ما بال أقوام » ؛ فقد روىٰ أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن رجلٍ شيئاً لم يقل له : قلت كذا

وكذا ، قال : ما بال أقوام يقولون كذا وكذا .

ـ وقالت عائشة أيضاً : لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ، ولا متفحشاً ، ولا سخاباً[1] بالأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح .

ـ وكان ﷺ لا يواجه أحداً بما يكره حياءً وكرم نفس ، فقد روىٰ الإمام أحمد وأبو داود عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : رأىٰ رسول الله ﷺ علىٰ وجهِ رجلٍ صفرة ، فقال : « لو أمرتم هذا أنْ يغسلَ هذه الصفرة » . وكان لا يكادُ يواجهُ أحداً في وجهه بشيء يكرهه أبداً .

ـ ووصف سهلُ بن سَعد ـ رضي الله عنه ـ حياء الحبيب الأعظم ﷺ ، وكرمه الممزوج بالحياء فقال : كان رسول الله ﷺ حيياً لا يُسأل عن شيء إلا أعطىٰ .

ـ وهذا يتوافقُ مع كلامه ﷺ : « الحياءُ منَ الإيمان »[2] .

---

(١) سخاباً : صياحاً .

(٢) رواه الشيخان .

و « الحياء لا يأتي إلا بخير »[1] .

ـ ووصفَ ربيبُ النبيِّ ﷺ هندُ بنُ أبي هالة ـ رضي الله عنه ـ حياءَ رسولِ الله ﷺ فقال : كان رسولُ الله ﷺ خافضَ الطّرفِ ، جُلّ نظرِهِ إلىٰ الأرض أكثر من نظرِهِ إلىٰ السماء ، جل نظره الملاحظة . ترىٰ ، هل كان رسولُ الله ﷺ يغضب ؟!

نعم ، كان الحبيب الأعظم ﷺ يغضب ، ويواجه بالحق إذا انتهكتْ حُرماتُ الشرعِ ، وينتصرُ لدين الله ، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : ما ضربَ رسولُ اللهِ ﷺ شيئاً قط بيده ، ولا امرأة ، ولا خادماً ، إلا أنْ يجاهدَ في سبيلِ اللهِ ، وما نيل منه شيءٌ قطُّ فينتقم من صاحبه ، إلا أنْ يُنتهكَ شيءٌ من محارمِ اللهِ تعالىٰ ، فينتقم لله تعالىٰ[2] .

ـ وكانَ ﷺ وهو أشدُّ النّاسِ حياءً يوجّه أصحابَه إذا بدرَ

---

(١) رواه الشيخان .
(٢) أخرجه مسلم .

منهم شيء ؛ روىٰ البخاري في الأدب المفرد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : صنعَ رسولُ اللهِ ﷺ شيئاً فرخّص فيه ، فتنزّه عنه قوم ، فبلغ ذلك رسولُ اللهِ ﷺ فخطب ، فحمد الله تعالىٰ ، ثم قال : « ما بال أقوامٍ يتنزهون عن الشيء أصنعه ؟ فوالله إنّي لأعلمُهم بالله تعالىٰ ، وأشدّهم له خشيةً » .

ـ وهذا يشيرُ إلىٰ أن حياءَهُ ﷺ عن المواجهة فيما عدا ذلك مما تركهُ أفضل وأحسن ، أو فيما كان من حقٍّ نفسه تسامحاً وتغاضياً ، وأمّا حقُّ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، وحقُّ العباد ، فلا .

* * *

الفصل الثاني

تربيةُ الصحابة علىٰ مائدةِ الحياءِ

الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ هو النبي المربّي المعلم ، الذي تخرجتْ أجيالُ الصحابةِ في مدرستهِ العظيمة ، فكانوا سادة القادة ، وقادة السادة ، في كلِّ عصرٍ ومصرٍ ، وكلِّ زمانٍ ومكانٍ ، فقد بعثَ الحبيب المصطفىٰ ﷺ ليتمم مكارمَ الأخلاق ، ومحاسنَ الأفعال ، فقد كانت حياتُه الشريفةُ حياةَ تربية وتعليم ، وتأديبٍ وتهذيبٍ ، وحسبنا دليلاً علىٰ ذلك أنَّه ﷺ أخرجَ الناس من الظلمات إلىٰ النور ، ومن أسوأ العاداتِ والعباداتِ والمعاملات إلىٰ أرقِّ العباد ، والمتّقين ، وأهلِ الحياءِ ، فكانوا علماء ، حلماء ، رحماء ، أخيار .

ـ ولعلَّ منْ مناهجِ التربيةِ النبويةِ العظيمةِ ، تربية الصحابةِ الأخيار علىٰ مائدة الحياء ، ليكونوا أعلام الهدىٰ ، ـ وقد

كانوا ـ فقد كانت تربيتهُ ﷺ في هذا المضمار فريدة ، ربّىٰ الكبار ، ولم يهملِ الصِّغار ، ربّىٰ النِّساء ، ولم ينسَ الصّغيرات ، كانتْ تربيتهُ شاملةً كاملةً استفاد منها مَنْ حوله ذكوراً وإناثاً ، شيباً وشباباً ، ألا ما أعظمَ هذه التربية!

ـ فقد كان ﷺ يوصي أصحابهُ بلزوم الحياء منَ الله والناس ، ويؤكد لهم أنَّ لزومَ الحياءِ ذروة الفضل ؛ يروىٰ عنْ معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ وصّاه لما بعثه إلىٰ اليمنِ ، فقال : « استحي منَ اللهِ كما تستحي رجلاً ذا هيبةٍ منْ أهلك »[1] .

ـ وكان الصحابة بدورهم يسألونَ النبي ﷺ عن ألوانِ الحياءِ ، فقد سُئل النبي ﷺ عن كشفِ العورةِ خالياً ، فكان الهديُ النبوي في تعليمِ الرجل الحياء ، ولزومه هذه السمة سراً وعلانيةً فقال له : « الله أحقُّ أنْ يُستحيا منه »[2] .

---

(١) أخرجه البزار برقم (١٩٧٢) ؛ وانظر : مجمع الزوائد (٨/ ٢٣) .

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٠١٧) ، والترمذي برقم (٢٧٦٩ و ٢٧٩٤) ، وحسّنه ، وابن ماجه برقم (١٩٢٠) .

ـ وفي حياةِ الصحابةِ الكرامِ صُورٌ منَ الحياءِ تدلُّ علىٰ التربية النبويةِ التي تعلموها منَ الحبيب المصطفىٰ ﷺ ، وفي هذا المجال يظهرُ سيدنا علي بن أبي طالب ليرسم صورةً رائعةً منْ صورِ الحياء ؛ ففي الصحيح عنه ـ رضي الله عنه ـ قال : كنتُ رجلاً مذّاءً ، فأمرتُ رجلاً أنْ يسأل النبي ﷺ لمكان ابنته ، فسأل ، فقال : « توضأ واغسلْ ذكرك »[1] .

ـ وتمتدُّ يدُ الحياءِ لتطالَ صغارَ الصحابةِ وتمسح بجناحها قلوبهم الصغيرة والكبيرة التي عرفتْ فالتزمت .

ـ وفي هذا المجال نضربُ مثلاً بالصحابي ابن الصحابي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الذي نشأَ وتغذّىٰ رحيق الإيمان ، فكانت تصرفاتهُ موشاةً بالحياء ، فهو يحترمُ المجالسَ النبوية ، ولا يدلي دلوه إذا ما حدثت مسألة ، بل يلتزم الحياء وإن كان يعرفُ الإجابة .

---

(١) أخرجه البخاري في العلم برقم (١٣٢) ، وفي الغسل برقم (٢٦٩) .

ـ جاءَ في الصحيح عنه ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنَّها مثلُ المسلم ، فحدّثوني ما هي ؟ »

فوقعَ النّاس في شجر البوادي .

قال عبدُ الله : ووقع في نفسي أنَّه النخلة ، فاستحييتُ ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله!

قال : « هي النخلة »[1] .

* * *

(١) أخرجه البخاري في العلم برقم (١٣١) .

الفصل الثالث

حقيقةُ الحياءِ في حديثِ سيد الأنبياء

في جامعه أخرج الترمذي ـ رحمه الله ـ بسندٍ رفعه إلىٰ الصّباح بن محمد عن مرّة الهمداني عن عبد اللهِ بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « استحيوا منَ اللهِ حقَّ الحياء » .

قلنا : يا نبيَّ اللهِ إنا لنستحيي والحمد لله .

قال : « ليس ذاك ، ولكن الاستحياءَ من اللهِ حقَّ الحياء أنْ تحفظَ الرأسَ وما وعىٰ ، وتحفظ البطن وما حوىٰ ، وتتذكر الموتَ والبِلىٰ ، ومَنْ أراد الآخرةَ ترك زينة الدنيا ، فمن فعلَ ذلك فقد استحيا من اللهِ حقَّ الحياء »[1] .

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٥٧٥) ، انظر : تحفة الأحوذي =

ـ فالحياءُ هنا نوعان : حياءٌ ممدوح ، وحياءٌ مذموم .
فالممدوحُ مثل : أنْ يتركَ القبيحَ حياءً منَ اللهِ .

والمذموم مثل : أن يتركَ المطالبةَ بحقوقهِ ، أو يتركَ السُّؤال عن أمورِ دينه .

ـ وفي حديث أمِّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ : رحمَ اللهُ

= بشرح جامع الترمذي (٧/ ١٥٤ و ١٥٥) وقال أبو عيسى الترمذي : هذا حديث غريب إنّما نعرفه من هذا الوجه من حديث أبان بن إسحاق ، عن الصبّاح بن محمد .
وقال الشارح : وفي إسناد الترمذي الصبّاح بن محمد ، وهو ضعيف .
قال العقيلي : في حديثه وهم ويرفع الموقوف .
وقال الذهبي في الميزان : رفع حديثين هما من قول عبد الله بن مسعود .
أما قوله ﷺ : « استحيوا منَ اللهِ حقّ الحياء » . أي : حياءً ثابتاً لازماً صادقاً ، وقيل : اتقوا الله حقّ تقاته .
وقوله البِلىٰ بكسر الباء ، من بلي الشيء إذا صار خلقاً متفتتاً ، يعني تتذكر صيرورتك في القبر عظاماً بالية .

نساءَ الأنصار ، ما منعهن الحياء أنْ يتفقهن في الدِّين . قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

ـ وقوله ﷺ : « استحيوا من الله حقّ الحياء » هذا الأمر خرج عن صيغته الأصلية إلى الإرشاد ، وهذا من أبحاثِ البلاغةِ في قسمِ الإنشاء .

ـ وكما نرىٰ أنَّ في هذا الحديثِ الشريفِ قبساتٍ مضيئات وضيئات منْ أقباس النبوة الجميلة ، وأنوار من سواطعِ الإيمانِ العظيم ، أرشدنا إلىٰ التمثُّل بها نبيُّ الرحمةِ الرؤوف الرحيم الحيي الكريم ﷺ ، وذلك كيما نجعلها مناراً لنا وشعاراً في حياتنا الدُّنيا .

ـ فالحبيب الأعظم ﷺ يشيرُ إلىٰ الحياءِ ، ويرشدُ إليه ، ويضيء أمامنا الطريق ، ويأخذ بأيدينا إلىٰ مدارج العزّ والسّعادة ، فلا خيرَ في الإنسان إذا تعرىٰ عنِ الفضائل ، ولا قيمة له إذا فَقَدَ الحياء والأخلاق ، فالأمم الأخلاق ، والمجتمعات تُوزَنُ بها وبآدابها ، وإذا لم يكن عند المرء خلقٌ ولا أدب ولا حياء ، فلا خيرَ فيه ، وما أجمل قول أبي تمام في

هذا المضمار الجميل :

إذا لم تخشَ عاقبةَ الليالي ولم تستحي فاصنعْ ما تشاءُ

فلا وَاللهِ ما في العيش خيرٌ ولا الدُّنيا إذا ذهبَ الحياءُ

يعيشُ المرءُ ما استحيا بخيرٍ ويبقىٰ العود ما بقي اللحاءُ

ـ فالحبيب الأعظمُ ﷺ يدعو أصحابه ، وأحبابه ، والناسَ جميعاً في هذا الحديث إلىٰ التخلق بخلق الحياء الكريم الذي هو من صفاتِ المؤمنِ الكامل ، ثم يرشدُهم إلىٰ حقيقةِ معنىٰ الحياءِ ، الحياء الذي يحبُّه الله عَزَّ وجَلَّ ، ويريده لعباده ، ويجنبه من التردي في مهاوي الزيغ والضلال .

ـ فليسَ المقصودُ من قوله : « استحيوا من الله حق الحياء » هو مجردُ التّظاهرِ بالحياء ، أو التخلّق به على الشّكل الذي تعارف عليه الناس ، وإنَّما الغرضُ أن يعرفَ المؤمنُ ويتعرّفَ حقيقةَ الحياء جوهراً وسلوكاً ، لأنَّ الحياءَ منبعثٌ منَ الإيمان .

ـ إنَّ الحياءَ الحقيقيَّ هو الذي يسمو بصاحبه نحو

الكمال ، ويرتفعُ به عن حضيض الآثام التي انغمسَ فيهِ كثيرٌ من النّاس ، حيثُ تقودُهم شهواتُهم إلىٰ مهاوي الرّدىٰ ، فلم يصونوا جوارحَهم ولا أعضاءَهم ، فلذلكَ أشارَ ونبّه الحبيبُ الأعظمُ ﷺ إلىٰ ذلك ؛ إلىٰ حفظِ الرأسِ وما فيه ، والبطنِ وما يحويه ، ثم ليتذكر الإنسانُ الموت والفناء والنّهاية .

ـ نعم ، فهذا هو الحياءُ الحقيقي ، وهذه هي حقيقة الحياء التي دعا ويدعو إليها سيّدُ أهلِ الحياء ورأسُهم ورئيسُهم حبيبنا محمد ﷺ .

ـ هذا هو الحياء في المنهج النبوي ، يحفظ الإنسان حواسّه ، يحفظ سمعه وبصره ولسانه ، فلا يسمعُ إلىٰ فحش ، أو هجر من القول ، ولا ينظرُ إلىٰ حرام أو محرم أو شهوة ، ولا يتكلّم بمنكر أو قبيح ، وكذلك يحفظ بطنه ، فلا يدخل إليه حراماً ، ويحفظ فرجَه فلا يرتكب فاحشةً أو يلوثُ شرفاً ، ويحفظ يديه ورجليه وسائر أعضائه وحواسّه فلا يمشي إلى رجس ، ولا يعتدي علىٰ إنسان .

ـ فإذا فعلَ المؤمنُ هذا كلّه ، يكون قد تحققَ معنىٰ

الحياء ، ويكونُ من أهلِ الحياءِ ، ويكون قد تخلّقَ بذلك الخلقِ الكريمِ الطّاهرِ الذي كانَ من خلقِ رسول الله ﷺ .

ـ فلنسرعْ إلىٰ الحياء ، ولنبادر إلىٰ تمثله ، فإنَّ الحياةَ السعيدة في الحياء .

* * *

البابُ السابع

الحياءُ في
حياةِ الصحابة وسلوكهم

الفصل الأول : رجلٌ تستحي منه الملائكة

الفصل الثاني : حياءُ أشجّ عبد القيس

الفصل الأول

رجلٌ تستحي منهُ الملائكة

قالَ حبيبُنا وسيدنا محمدٌ ﷺ في حقّ هذا الصحابي الكريم المفضال : « ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة »[1] ؟!

ـ تالله إنَّ رجلاً يقولُ فيه الحبيبُ الأعظمُ ، وسيِّدُ أهلِ الحياء ، هذا القولَ لرجُلٌ عظيمٌ كريم!

ـ ترىٰ مَنْ هذا الذي حظيَ بهذا الشرفِ العظيم ، وهذا التكريم الكريم ، لخُلُقه وحيائه الكريم ؟!

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٠١) ، وأحمد (٦/ ١٥٥و١٦٧) ؛ وانظر : مجمع الزوائد (٩/ ٨١) .

ـ هو ثالثُ خلفاءِ الخلافةِ الراشدةِ عثمانُ بنُ عفانَ الأمويُّ القرشي[1] أميرُ المؤمنين ، وأحدُ العشرة المبشرين بالجنّة ، ومن السّابقين الأولين إلىٰ الإسلام ، وإلىٰ دوحة الفضائل ، وممَّنْ صلّىٰ إلىٰ القبلتين ، وهاجر الهجرتين ، وهو زوج الابنتين الشريفتين : رقية وأم كلثوم ، وهما بنتا رسول الله ﷺ ، ولذا لقّب بذي النُّورين لتزوجه بهما .

ـ وما نقولُ عمّنْ جهَّزَ جيشَ العُسرة ، واشترىٰ بئر رومة بالمدينة بعشرين ألفاً ، ثم تصدَّق بها ، وابتاع توسعة المسجد النبوي بخمسةٍ وعشرينَ ألفاً ؟!

ـ إنَّ القلمَ ليعجز أنْ يرسمَ ما قدَّمهُ هذا الصحابي الحيي

---

(١) مصادر ترجمة عثمان رضي الله عنه لا تُحصىٰ ولا تُحصر ، ومنها : طبقات ابن سعد (٣/٥٣ـ٨٤) ، وصفة الصفوة (١/١١٢) وما بعدها ؛ وحلية الأولياء (١/٥٥) وما بعدها ، وانظر : الاستيعاب ، وأسد الغابة ، والإصابة ، وتاريخ الإسلام للذهبي ، والرياض النضرة ، وغيرها كثير جداً .

الكريم ، فقد كان شريفاً في الجاهليةِ والإسلام ، إذ كان أحد الخمسة الذين نوَّرَ اللهُ قلوبهم علىٰ يدِ سيدنا أبي بكر الصديق لما بزغتْ شمسُ الهدايةِ تؤذنُ بمطلعِ فجرِ الهدىٰ والإيمان .

ـ ولعثمانَ أوّليات مشرقة بارقة تلمعُ في جنح الليالي ، وتندي صفحات الأيام ، وتعطِّرُ الكونَ بشذا أريجها ، فهو أولُ مَنْ هاجرَ إلىٰ الحبشة مع زوجهِ رقية بنت رسول الله ، وهو أوّل مَنْ شيّد المسجد ، وأولُ مَنْ خطَّ المفصَّل ، وأوّلُ مَنْ ختمَ القُرآن في ركعة .

ـ وله فضائلُ عظمىٰ ، فقد اختصه الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ بكتابةِ الوحي ، وأخبر أنَّه أشدُّ هذه الأمّة حياء ، وأنَّ الملائكة تستحي منه .

ـ ويكفيه منَ الفضلِ أنَّ الحبيب المصطفىٰ ﷺ قد استغرق في الدُّعاء له يوم العُسرةِ ، ورفعَ يديه حتىٰ أُريَ بياضَ إبطيه .

ـ وحياءُ عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ حياءٌ ممزوجٌ بشخصه الكريم منذ أنْ رأىٰ الدنيا إلىٰ آخرِ نَفَس في حياته ، ومن ألوانِ

حياتِهِ ما وردَ عنه ـ رضي الله عنه ـ قال : ماتغنيتُ ، وما تمنيتُ ، ولا وضعتُ يدي اليمنىٰ علىٰ فرجي منذُ بايعتُ بها رسولَ الله ﷺ ، وما مرّتْ بي جُمعةٌ إلا وأعتقُ فيها رقبة ، ولا زنيتُ في جاهليةٍ ولا إسلام ، ولا سرقتُ .

ـ ومنْ مناقبِ عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ شهدَ له بالحياء ، فقد روتْ أمنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : استأذنَ أبو بكر علىٰ رسول اللهِ ﷺ ، وهو مضطجعٌ علىٰ فراشٍ ، عليه مِرطٌ لي ، فأذنَ له وهو علىٰ حاله ، فقضىٰ الله حاجته ثم انصرفَ ، ثُمَّ استأذنَ عمر ، فأذن له ، وهو علىٰ تلك الحال ، فقضىٰ الله حاجته ، ثُمَّ انصرفَ ، ثُمَّ عثمان ، فجلس رسولُ اللهِ ﷺ ، وأصلح عليه ثيابه ، وقال : « اجمعي عليك ثيابك » فأذنَ له ، فقضىٰ اللهُ حاجته ، ثم انصرف .

فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ، لم أرك فزعتَ لأبي بكر وعمر كما فزعتَ لعثمان ؟

فقال : « يا عائشة إنَّ عثمانَ رجلٌ حييٌّ ، وإني خشيتُ إنْ

أذنتُ له علىٰ تلكَ الحالِ ألا يبلِّغ إليَّ حاجته »[1] .

ـ وفي روايةٍ لأحمد والطبراني ، وأبي يعلىٰ بإسناد حسن : « ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة » ؟[2] .

ـ وقد شهدَ له رسولُ الله ﷺ أيضاً بأنَّه أكثر الصحابة شبهاً به بالخُلق ؛ فقد أخرجَ الطبراني منْ حديث عبد الرحمن بن عثمان القرشي أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دخلَ علىٰ ابنته وهي تغسل رأس عثمان ، فقال : « يا بُنية ، أحسني إلىٰ أبي عبد اللهِ فإنَّه أشبهُ أصحابي بي خُلُقاً »[3] .

ـ وأخرج أبو نُعيم في الحلية هذه الحِلية الكريمة في مضمار الحياء ، من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنَّه قال : « أشدُّ أمّتي حياءً عثمان »[4] .

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة .
(٢) المسند (٦/ ١٥٥ و ١٦٧) ، وانظر : مجمع الزوائد (٩/ ٨١) .
(٣) انظر : مجمع الزوائد (٩/ ٨١) .
(٤) حليةُ الأولياء (١/ ٥٦) .

ـ وأخبارُ عثمان ـ رضي الله عنه ـ ترطِّبُ القلوب ، وتزكو بها النّفوس ، وتشحذ الهمم ، وتزينُ المجالس ، وتتحلّىٰ بها الأفواه والأسماع ، ولكنْ في هذا القدرِ كفاية لكتابنا هذا الذي زيّناه بطائفةٍ منْ مناقبه في الحياء رضي الله عنه وأرضاه .

* * *

الفصل الثاني

حياءُ أشجِّ عبدِ القيس

هذا صحابيٌّ كريمٌ حييٌّ ، ولكنَّ اسمه لم يلمع في عالم الشُّهرة كغيره من الصحابة ، إلا أنَّه يُعرف بالأشجّ! فمن الأشج هذا ؟ وما علاقته بالحياء ؟

ـ اختلفتِ الأقوالُ في اسمِ هذا الصحابي الكريم ، إلا أنَّ أرجحَ الأقوالِ في تسميته أنه : المنذر بن عائذ بن الحارث بن عصر العصري العبدي من عبد القيس ، يعرف بالأشجّ[1] .

---

(١) انظر ترجمته في : الاستيعاب (١٠/ ١٩٥) ترجمة رقم (٢٤٨٨) ، والإصابة (١٠/ ٢٨٤) ترجمة (٨٢١٣) ، وغوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المشتهرة لابن بشكوال (ص ٨١ـ٨٣) ، ومسند أحمد =

ـ قال ابنُ عبد البر ـ رحمه الله ـ : ذكروا أنَّه سيدهم وقائدهم إلىٰ الإسلام ، وابنُ ساداتهم ، فقالَ له رسولُ الله ﷺ : « يا أشج » ، وكان أول يومٍ سمِّيَ فيه الأشجُّ . ومنْ ولده عثمان بن الهيثم بن جهم بن عبس بن حسان بن المنذر العبدي المحدّث[1] .

ـ وأجمع مَنْ ترجمَ له بأنَّه يقال له : أشجُّ بني عصر ، مشهورٌ بلقبه هذا ، وفدَ علىٰ النبيِّ ﷺ ومَنْ معه من عبد القيس[2] . فاحتفىٰ بقدومهم ، وقال : « مرحباً بهم ، نِعْمَ القومُ عبد القيس » .

= (٣/ ٢٢ و ٢٣) و (٤/ ٢٠٥) ، وطبقات ابن سعد (١/ ٣١٤) و (٥/ ٥٥٧) و (٧/ ٨) ، ومجمع الزوائد (٩/ ٣٨٧) وأسد الغابة (١/ ١٩٦ و ١٩٧) وغير ذلك .

(١) الاستيعاب (١٠/ ١٩٥ و ١٩٦) .

(٢) كانت لبني عبد القيس وفادتان : الأولى قبل الفتح . والثانية كانت في سنة الوفود .
ـ وكان الأشج في الوفادةِ الأولىٰ كما جاء في كتب الصحيح وغيرها .

ـ ونلمحُ في السيرةِ العَطِرة ثناءَ النبي ﷺ علىٰ وفدِ عبد القيس وترحيبه بوفدهم ورئيسهم الأشج ؛ فقد ذكر ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ أنَّ النبيَّ ﷺ نظرَ إلىٰ الأفقِ صبيحةَ ليلة قدومِ الوفدِ وقال : « ليأتينَّ ركبٌ منَ المشركين ، لم يُكرهوا علىٰ الإسلام ، قد أنضوا الرّكاب ، وأفنوا الزّاد ، بصاحبهم علامةٌ ، اللَّهُمَّ اغفر لعبدِ القيس ، همْ خيرُ أهلِ المشرق » .

ـ ولما دخلوا علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وسلموا عليه ، امتدحَ الأشجّ ، وذكر بأنَّ فيهِ خصلتين من خصائل الخير ، وحصائلِ العقل ، وهما : الحلم والحياء .

ـ فقد أخرجَ الإمام أحمد والنسائي من حديثِ الأشجّ العصري قال : قالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ فيكَ لخُلقَين يحبُّهما الله » ؛ وفي رواية : « فيك خصلتان يحبُّهما اللهُ ورسوله » .

قلتُ : ما هما ؟

قال : « الحلم والحياء » .

قلتُ : أقديماً كانَ أو حديثاً ؟

قال : « بل قديماً » .

قلتُ : الحمد لله الذي جعلني على خلقَين يحبّهما الله[1] .

ـ إنَّ الحبيبَ الأعظمَ محمداً ﷺ يعلنُ عن ابتهاجه وسروره بوفد عبد القيس ، ونعتهم بألوانِ الفضائل من إخلاصٍ في إيمانهم وإسلامهم ، وعدم الاغترار بزخرف الدنيا ، وهم قد أهزلوا ركائبهم ، وقطعوا المسافات الشاسعة ، وتحملوا وعثاء السفر ، ومشقةَ الطريق ، ووحشةَ البوادي ، والشعابَ

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/٢٠٦) ، والنسائي في فضائل الصحابة برقم (٢١٠) ، والبخاري في الأدبِ المفرد برقم (٥٨٤) ، وابن سعد في الطبقات (٥/٥٥٨) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٣٨٧و٣٨٨) ، وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح . وهذا الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (١٨) من حديث أبي سعيد الخدري في خبر طويل بلفظ : « إنَّ فيك لخصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة » .

والأودية ، وذلك شوقاً إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ ليسلموا علىٰ يديه ، ويطالعوا إشراق النبوة في وجهه الشريف ﷺ .

ـ وقد خصَّ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ رئيسَهم الأشجَّ بأطيب الذِّكر ، وأحمد الثّناء ، إذ ذكر ما تميّز به الأشجُّ منَ الفضائلِ الإنسانية ، وذلك بما حباهُ الله منْ أخلاقٍ حميدة ، ومكارم عقلية جبَلَهُ الله عليها ، وفي طليعةِ ذلك : الحلمُ والحياءُ ، أو الحلمُ والأناة ، وإلىٰ هاتين الخصلتين يرجع جماع حكمته ومكارمه .

ـ ولعلَّ حبيبنا وسيدنا رسولَ اللهِ ﷺ قد أراد بهذا الوصف للأشج ، أنْ يلفتَ أنظارَ أصحابهِ قد أراد بهذا الوصف للأشج أنْ يلفتَ أنظار أصحابه الكرام ، ومنْ ثمّ أنظار المؤمنين إلىٰ يومِ الدِّين إلىٰ أنْ يكون نظرهم في تفاضلِ الرجال هو السّمو الخلقي والفكري وفي مقدمته الحياء .

ـ ومنَ الجدير بالذِّكر أنَّ وفدَ عبدِ القيس قد ظلُّوا ضيوفاً في المدينةِ عشرة ، فقد أخرجَ ابنُ سعدٍ ـ رحمه الله ـ أنَّه كانتْ ضيافة رسول الله ﷺ تجري علىٰ وفدِ عبد القيسِ عشرة أيام ،

وكان الأشجّ يسائلُ رسولَ اللهِ ﷺ عن الفقهِ والقُرآن ، وكان يأتي أبيَّ بن كعب فيقرأ عليه ، وأمرَ رسولُ اللهِ ﷺ للوفدِ بجوائز ، وفضَّل عليهم الأشجّ ، فأعطاه اثنتي عشرة أوقية ونشّاً ، وكان ذلك أكثر ما كان رسولُ اللهِ ﷺ يجيزُ به الوفد[1] .

* * *

(١) طبقات ابن سعد (٥/٥٥٨) .

الباب الثامن

من الحياء السلبي

الفصل الأول : ذمُّ بعضِ الحياءِ في أقوالِ الفضلاء

الفصل الثاني : متىٰ يذهبُ الحياء ؟

الفصل الثالث : إذا طارَ الحياءُ من النّساء

الفصل الأول

ذمُّ بعضِ الحياءِ في أقوالِ الفُضلاء

أكثرَ الفضلاءُ والعلماءُ في امتداحِ الحياء ، وتبيان فضائِلهِ ومحاسنهِ ، وطرقِ منافعه ، هذا إذا كانَ الحياءُ طبيعياً ، ولكنّهم ذمّوا الحياء الذي ينقلبُ إلىٰ ضِدّه ، ويصبح شيئاً منَ الجهل والاستخفاف .

ـ قالَ عليُّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : قُرِنَتِ الهيبةُ بالخيبةِ ، والحياءُ بالحرمانِ[1] .

ـ وقيل في الأمثالِ القديمة : كثرةُ الحياءِ منَ التَّخنُّثِ[2] .

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٤١٤ و ٤١٥) .
(٢) المصدر السابق .

ـ وقد ذمَّ بعضُ الشُّعراء الحياء الذي يكونُ وبالاً علىٰ الإنسانِ ، وضمَّنَ في كلامه حكمة علي بن أبي طالب في ضرر الحياء فقال :

إنَّ الحياءَ مع الحرمانِ مقترنٌ كذاك قالَ أميرُ المؤمنين علي
واعلمْ بأنَّ منَ التخنيث أكثره فارفعه في طلبِ الحاجات والأمل[1]

ـ وقال الحسنُ البصري في ضرر الحياء ، وذمّه في غير موضعه :

من استترَ بالحياء لبس الجهلُ سرباله ، فقطعوا سرابيل الحياء ، فإنَّه مَنْ رقَّ وجهه رقَّ علمه[2] .

ـ وللحياء مقدارٌ فما زاد عليه فلا يُعدُّ منَ الحياء ، وقد وصفَ رجلٌ الحياءَ عند الأحنفِ بنِ قيس فقال : إنَّ الحياءَ ليتمُّ لمقدارٍ من المقاديرِ ، فما زادَ علىٰ ذلك فسمّه بما أحببت[3] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .
(٣) العقد الفريد (٢/ ٤١٥) .

ـ وقال الشمّاخ :

أجاملُ أقواماً حياءً وقد أرىٰ صدورهم باديٍ عليَّ مِراضها

ـ وفي وصية جميلة ، يوصي ابن سعيد المغربي[1] ابنه بعدم السكوت عمّا يضره ، وأنْ يلجمَه الحياءُ عن ذلك فقال : ولا يحملك الحياء علىٰ السُّكوت عمّا يضرُّك ألا تبيّنه ، فإنَّ الكلام سلامُ السِّلم ، وبالأنين يعرف ألمُ الجراح ، واجعل لكل أمرٍ أخذتَ فيه غايةً تجعلها نهاية لك .

ـ وإذا ما حُرِمَ المرءُ الحياءَ وصار قحاً ، فإنَّ الموازينَ

---

(١) ابنُ سعيد المغربي : هو علي بن موسىٰ ، أديب ، ورحّالة ، ومؤرّخ ، ولد بقلعة يحصب قرب غرناطة سنة (١٢١٤ م) ، ومات بتونس ، وقيل بدمشق ، درس بإشبيلية ، وجالَ في مصر والشّام والعراق والحجاز وغيرها ، له ديوان شعر رقيق ، ترجم لنفسه ولأسرته في كتاب : الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد ، وله كتب عديدة أشهرها : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، وكتاب : المغرب في حُلىٰ المغرب ، وكتب أخرىٰ ، توفي عام ١٢٨٦ م .

تنقلبُ ، وبالتالي يستحقُّ الذّم ، وما أقبح الفتىٰ الذي يُسلَبُ هذا السربال! :

إذا حُرِمَ المرءُ الحياءَ فإنَّه بكلّ قبيحٍ كانَ منه جديرُ
له قحةٌ في كل أمرٍ وسرّه مباحٌ وجدواه جفاً وغرورُ
يرىٰ الشتمَ مدحاً والدناءة رفعة وللسمعِ منه في العظاتِ أمورُ

ـ نعم إنَّ المرءَ إذا كانَ ذا قحةٍ ، لا وازعَ له في الحياء ، قليلَ ماءِ الوجه والمروءة ، فلا خيرَ فيه ولا فائدة ، إذ إنَّ دواعي الحياءِ إذا ذهبتْ وغابتْ ، ذهبَ الحياء وغاب ، ولا خيرَ في وجهٍ لا حياء لصاحبه . فعن سفيان بن عيينة قال : قال يحيىٰ بن جعدة : إذا رأيتَ الرجلَ قليل الحياء ، فاعلمْ أنَّه مدخولٌ في نسبه[1] .

* * *

(١) روضة العقلاء (ص٩٠) .

الفصل الثاني

متىٰ يذهبُ الحياء ؟!

الذنوبُ والمعاصي من مفسدات مادة الحياء ، فكلّما اشتدتْ ملابسة الإنسان للذنوب ، ضعف عنده الوازع ، وكانتِ المعاصي سبباً لذهابِ الحياء الذي هو مادة حياة القَلْب ، وهو أصلُ كل خير ، وذهابه ذهاب الخير أجمعه ، وفي الصحيح عن رسولِ الله ﷺ قال : « الحياءُ خيرٌ كله »[1] .

ـ وقال ﷺ : « إنَّ مما أدرك النّاس من كلام النبوة

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (٣٧) ، وأبو داود في الأدب برقم (٤٧٩٦) .

الأولىٰ : إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شئت »[1] .

وفي هذا الحديث تفسيران :

أحدهما : أنَّه علىٰ التهديد والوعيد ؛ مَنْ لم يستحِ فإنَّه يصنعُ ما شاءَ من القبائح ، إذ الحاملُ علىٰ تركها الحياء ، فإذا لم يكن هناك حياءٌ يردعه عن القبائح فإنه يواقعها .

والثاني : أنَّ الفعلَ إذا لم تستحِ منه من الله فافعله . وإنما الذي ينبغي تركه هو ما يستحيا منه من الله .

فعلىٰ الأول يكون تهديداً كقوله : ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت : ٤٠] . وعلىٰ الثاني يكون إذناً وإباحةً .

ـ قال ابن قيم الجوزية عن الحديث السابق : فإن قيل : هل من سبيل إلىٰ حمله على المعنيين ؟

قلتُ : لا ، ولا علىٰ قولِ مَنْ يحملُ المشتركَ علىٰ جميـ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب برقم (٥٧٦٩) ، وأبو داود في الأدب برقم (٤٧٩٧) ، وابن ماجه في الزهد برقم (٤١٨٣) .

معانيه ، لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة ، ولكنّ اعتبارَ أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر[1] .

ـ والمقصود أنَّ الذنوبَ تضعفُ الحياءَ من العبد ، حتىٰ ربما انسلخَ منه بالكليةِ ، حتىٰ إنَّه ربّما لا يتأثرُ بعلمِ النّاس بسوءِ حاله ، ولا باطلاعهم عليه ، بل كثيرٌ منهم يخبرُ عن حالهِ ، وقبحِ ما يفعل ، والحاملُ له علىٰ ذلك انسلاخه من الحياءِ ، وإذا وصلَ العبدُ إلىٰ هذهِ الحال ، لم يبقَ في صلاحه مطمع :

وإذا رأىٰ إبليسُ طلعةَ وجههِ حيّا وقال : فديتُ من لا يُفلح

ـ إنَّ الحياءَ مشتقٌ من الحياة ، والغيث يسمى حيا ـ بالقصر ـ لأنَّ به حياةَ الأرض والنّبات والدّواب ، وكذلك سمّيت بالحياة : حياة الدنيا والآخرة ، فمن لا حياء فيه ، ميتٌ في الدنيا ، شقيٌّ في الآخرة ، وبين الذنوب وبين قلةِ الحياءِ وعدم الغيرة تلازمٌ منَ الطرفين ، وكلٌّ منهما يستدعي الآخر ،

---

(١) الداء والدواء (ص ١٣٢) .

ويطلبه حثيثاً ، ومَنِ استحيا منَ اللهِ عند معصيته ، استحيا اللهُ من عقوبته يومَ يلقاه ، ومَنْ لم يستحِ من معصيته ، لم يستحِ من عقوبته .

ـ ومما يُنْسبُ لنبي الله سليمان ـ عليه السلام ـ قوله :

الحياءُ نظامُ الإيمانِ ، فإذا انحلَّ النظام ذهب ما فيه[1] .

* * *

(١) بهجة المجالس (١/ ٥٨٩) .

الفصل الثالث

إذا طارَ الحياءُ من النِّساء!

إنَّ الحياءَ حسنٌ ومنَ النِّساءِ أحسنُ ، ولكنْ إذا طارَ الحياءُ منهنَّ وتبخَّرَ فأينَ تكمن الفضيلة ؟! وأينَ نجدُ المكارم ؟! لأنَّ الحياءَ ذروةُ المكارم عند النّساء أولاً .

ـ إنَّ المرأةَ إذا فقدتِ الحياء لم تبقَ فيها خلةٌ حسنةٌ ، وربما تصنعُ الأعاجيبَ ؛ وأمامي الآن قصيدة جميلة لإحدىٰ شواعر عصرنا الحالي وهي فاطمة حداد[1] السورية التي

---

(١) فاطمة حداد إحدىٰ شواعر النساء السوريات المعاصرات ، ولدت في مدينة اللاذقية عام (١٩١٩ م) ، وتزوجت في سن مبكرة ، ثم تركت المدرسة لظروف أحاطت بها ، أحبتِ الشعر والأدب ، ولها دواوين شعرية من أشهرها ديوانها =

تتحدثُ عن راقصةٍ منحرفةٍ طارَ الحياءُ منها ، وتبخّرت عناصره ، فبدتِ الراقصةُ في قصيدتها بائعةً للجمالِ ، سكرىٰ ، ترقصُ كالطيرِ المذبوح ، بل هي لقمة مُضغتْ بأنيابٍ ظالمةٍ ، وهذه الراقصة كالروضة النضيرة التي تجفُّ لترويَ ظلمةَ الظامئين ، وكالوردةِ الفوّاحة يشمّها الرجل ثم يلقيها ويدوسها ، أو كالطير الذي تناثر ريشُه بينَ المخالبِ والأنياب .

ـ وهذه الراقصةُ التي جفَّ حياؤها ، لم تكن هي وحدها كذلك صاحبة الذّنب ، بل كلُّ الذين استمعوا لها ، واستمتعوا برقصها وأنّاتها ، ودفعوها إلىٰ المزيد من طرح رداء الحياء ، بتشجيعهم لها ، فهمُ الذين عاموا علىٰ أمواجِ بحرها ،

= الأخير وهو بعنوان « غزلُ الرماد » ، وقد خطّه أحد عمالقة الخطاطين بالخط الفارسي الجميل ، وهو متداول مطبوع ، ولكن لم يُذكر عليه اسم ناشر أو تاريخ طبع ، ولكن وصلتني منه نسخة منذ بضعة أعوام . وشعر فاطمة حداد جميل سلس يعالج عدة نواح مهمة .

فأغرقوها وتركوها بين الأمواج تلتهمُها ، وتجعلُها في الأسفلين .

ـ والآن دعني عزيزي القارىء ، أقدّم لك هذه التُّحفة الفنية ، والصورة الشعرية الجميلة ، ومع أنفاس هذه الشاعرة ، ذات الرّيشة الأدبية الساحرة ، والكلمات المعبّرة الآسرة ، والمعاني اللطيفة الناضرة ، وهذه الهمسات الجميلات الناعمات لبنات حواء كيلا يبتعدن عن ثوب الحياء :

بِعْتِ الجمالَ وترقصينَ وتطربينَ وتمرحينْ
وبذلتِ حُسنكِ عارياً ووقفتِ باسمةَ الجبينْ
فوقَ المسارحِ ريشةٌ هبّتْ تُثيرُ العاشقينْ
يا نفحةَ الرّوضِ النّضيرِ وبسمةَ الصُّبح المُبينْ
حولَ البيابِ فراشةً براقة تتنقلينْ
تترنحينَ معَ الصنوجِ جريئةً وتُجلجلينْ
والخصرُ لفّتهُ الشُّفوفُ وصانَهُ البرقُ الحصينْ

مَنْ أنتِ يا هيفاء يا دوامةً ذابتْ حنينْ
يا مغزلَ التجارِ في الأسحار مَنْ للبائعينْ
يتجمهرونَ ويطربونَ وأنتِ لا تتأثرينْ
يستعذِبونَ هنيهةً ويهاجمونَ مدىٰ السنينْ
بيعتْ عواطفُكِ الثّمينةُ يا دهاءَ الرابحينْ
بعتِ الجمالَ فما شعورُكِ يا تُرىٰ لو تشرحينْ
سكرىٰ علىٰ خشبِ المسارحِ غبتِ عما تفعلينْ
أم ترقُصين رهينةً مذبوحةً تتألمينْ
طيراً أسيراً أرقصته يدُ الأثيمِ المستهينْ
مِسكينةٌ يا مَنْ وهبتِ لغيرِكِ الكنزَ الثمينْ
ما أنتِ إلا لُقمةٌ مُضغتْ بأنياب السنينْ
ما أنتِ إلا روضةٌ جفّتْ تُروّي الظامئينْ
ما أنتِ إلا وردة كلٌّ يشمُّ ويستهينْ
زعموا وقالوا حرّة ولأنتِ أكثرُ من سجينْ

طيرٌ تناثرَ ريشهُ بينَ المخالبِ يستكينْ
في القيد غرّدَ باكياً يرجو الخلاصَ ولا مُعينْ
خلخالُهُ ذهبٌ ولكنْ لا يَرِقُّ ولا يلينْ
زعموكِ وحدكِ عن شقائك في الحياة ستُسألينْ
وتبرّؤوا منْ ذنبهم يا ويلهم منْ مُذْنبينْ
الذَّنبُ ذنبُ الناس كلُّهم بما تتعذبينْ
يا ويلهمْ ممّا جنوا مُستمتعينْ مشجعينْ
عاموا علىٰ أمواجِ يمّكِ يُبْحرونَ وتغرقينْ[1]

---

(١) غزل الرماد (ص ٧٣ـ٧٥) . وقد ذكرتُ هذه القصيدة كاملة ، لما فيها من وصف دقيق لواقع هؤلاء اللواتي عصفت بهن يدُ الغدر ، وجعلتهن للتسلية ، ومن ثم يُرمىٰ بهنّ إذا ما ذوي جمالهن .

ولعل ما نراه اليوم ونسمع به من عرض أزياء ، وانتخاب ملكات جمال لا يبُعد كثيراً عما قصدته الشاعرة في هذه القصيدة الجميلة .

ـ إنَّ الحياء خمارُ المرأةِ ، فإذا ما خلعت هذا الخمار أصبحت لا خيرَ فيها ، وإذا ما تولّىٰ عنها الحياءُ تولّتْ عنها المكارم ، قالَ علي الجارم مخاطباً ابنته والمرأة بشكل عام ، بأنْ تجعلَ الحياءَ شعارها :

واجعلي شيمةَ الحياءِ خماراً فهو بالغادةِ الكريمة أولىٰ
ليس للبنتِ في السعادةِ حظٌّ إنْ تناءىٰ الحياء عنها وولّىٰ
والبسي من عفافِ نفسكِ ثوباً كُلُّ ثوبٍ سِواهُ يفنىٰ ويبلىٰ

ـ إنَّ حياءَ المرأةِ مفتاحُ كلِّ خيرٍ لها وللمجتمع ، فالحياء عنصرُ النُّبل ، فما كان في شيء إلا زانه ، ولو تجسّم لكان رمْزَ الصلاح والفلاح والإصلاح .

ـ إنَّ الحياءَ إذا سقط عن وجه المرأة ، فقد آذنتِ الحياةُ الفاضلةُ بالضُّمور ، وأضحتْ عُنصر سوءٍ في المجتمع يجب إصلاحه أو إزالته ، إلا أنَّ المرأة التي تعي دورها في هذه الحياةِ لتدرك تماماً قيمةَ الحياءِ ومكانته ، وتدرك أنَّها روحُ الحياةِ وحياةُ الروحِ في هذا المجتمعِ الخيِّر الذي تقودهُ بحيائها إلىٰ مدارج الكمال .

ـ أما إذا تبعتْ حياةَ الفوضىٰ وفوضىٰ الحياة ، فإنَّها لا تأتي بخير ، وخصوصاً إذا فقدتْ عنصر الحياء الذي هو مادّة الحياة وروحها ، هنالك تكون الكارثة ، وتكون الفوضىٰ واللامبالاة ، ولكنّ الحقيقة لا تخفىٰ علىٰ كلِّ ذي لبّ ، وعلىٰ كل عاقل .

ـ وفي تلكم المعاني السابقة وجدتُ قصيدةً جميلة بعنوان : « فوضىٰ حياتكِ » لأحدِ شعراءِ العصر الحالي واسمه محمد محمود عثمان[1] ، تعالجُ قضية مهمة من قضايا المرأة التي تركت الحياء وراء ظهرها ، وتبعت الموضة والفوضىٰ ،

---

(١) محمد محمود عثمان ، أحد شعراء سورية الموهوبين الذين أحبوا الشعر وفنّ الكلام ، وُلد هذا الشاعر سنة (١٩٥٣ م) في بلدة جيرود القريبة من دمشق ، وتعلّم وعلّم في مدارس دمشق ، حتىٰ حصل على التقاعد عام (١٩٩٤ م) ، وله آثار شعرية جميلة رائعة من أشهرها ديوان « فجر الهداية » وهو مطبوع متداول ، وحظي علىٰ أكثر من جائزة شعرية في عديدٍ من المهرجانات .

وعَرضتْ مفاتنها للأنام ، وغطّتْ وجهها بالمساحيق ، ولكن لم تجدها تلكم الرتوش ولا ذلكم التزوير والخداع ، ثم يدعو الشاعر محمد عثمان المرأة دعوة حلوة طيبة إلىٰ الحياء وإلى الأخلاق الحسان من خلال قصيدته الجميلة التي اختار لها أصعب القوافي مركباً ، فمع الشاعر محمد عثمان نبحرُ في هذا اليمّ :

فوضىٰ حياتُكِ لا أحبُّ الفوضىٰ ... والنّاسُ يقتلُهم رياءُ مرضىٰ
فوضىٰ حياتُك ما علمتُ وإنّني ... بالسُّوء والإفساد لا أرضىٰ
فوضىٰ مسيرِكِ في الطّريقِ تطايرتْ ... عيناكِ طولاً ثُمَّ مالتْ عرضا
فوضىٰ ثيابُكِ والأظافرُ مثلُها ... وعيونُك الحمقىٰ وصدرك أيضا
فوضىٰ جدائِلكِ التي بعثرتِها ... في الدّربِ شلاّلاً تهزُّ الأرضا
تبدينَ للأنيابِ كلَّ مفاتنٍ ... هلْ أنتِ عارضةٌ جمالك عرضا ؟
بصراحةٍ تبقينَ مهما عدّلَتْ ... فيك المساحيقُ التي قد تنضىٰ
ما للخداعِ ترسختْ أركانه ... وبدا لصيقاً في الهوىٰ أو فرضا
هيا امسحي مكياجَ وجهك واصدقي ... لا تقتلي روحاً ويكفي البعضا

يكفي خداعاً مَنْ تُراكِ تخادعي ... إلاّ صباكِ وتستفيدُ الموضىٰ
ما أجملَ الحسناءَ تدركُ خيرها ... وتظلُ تسترُ حسنها والرّمضا
إيمانها وحياؤها أضفىٰ لها ... كلَّ الجلالِ وأمْرُها قُلْ يُقْضىٰ
باهتْ بسترٍ أزهر يسمو بها ... فحنتْ لطلعتها العوالي خفضا
فالصِّدقُ يرفعُها إلىٰ أعلىٰ الذُّرا ... ويعيش في قلبِ الأحبةِ نبضا
أمّا الخداعُ فإنَّه متكشّفٌ ... يوماً لديها والسَّرائرُ تفضىٰ

ـ وبعد أحبابنا الأعزاء ؛ فتلكم همساتٌ وأنسامٌ قضيناها في رحابِ الحياءِ ، ذلك الخُلق النبيل الخيّر ، بل الخُلق الذي كلّه خيرٌ ، وخيرٌ كله ، وها نحنُ أولاء قد عرفنا ماهيته ، فتعالوا ندعو الله عَزَّ وجَلَّ بهذا الدعاء :

اللَّهُمَّ اجعلنا من أهلِ الحياءِ ، وأكرمنا بخلُق الحياء ، واحشرنا معَ أهلِ الحياءِ ، وزيّنا بالحياء .

اللَّهُمَّ اجعل الحياءَ رداءً لنا ، ولا تفضحنا بين خَلْقِكَ ، واجعلنا ممن يستمعون القولَ فيتبعون أحسنه .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

* * *

فهرس الموضوعات

مقدمة ٥

الباب الأول: الحياء بين الإيمان ومكارم الأخلاق ١١

الفصل الأول: الحياء والإيمان ١٣

الفصل الثاني: الحياء والعقل والأدب ١٨

الباب الثاني: الحياء والحياة ٢٣

الفصل الأول: الحياء في حياة الإنسان ٢٥

الفصل الثاني: أنواع الحياء وأقسامه عند العلماء ٣٠

أولاً: حياء الجناية ٣٤

ثانياً: حياء التقصير ٣٤

ثالثاً: حياء الإجلال ٣٥

رابعاً: حياء الكرم ٣٥

خامساً: حياء الحشمة ٣٦

سادساً: حياء الاستحقار واستصغار النفس ٣٦
سابعاً: حياء المحبة ٣٦
ثامناً: حياء العبودية ٣٧
تاسعاً: حياء الشرف والعزة ٣٧
عاشراً: حياء المرء المستحيي من نفسه ٣٨
معاني الحياء ٤٠
النوع الأول: حياء الإنسان من الله تعالى ٤١
النوع الثاني: حياء الإنسان من الناس ٤٤
النوع الثالث: حياء الإنسان من نفسه ٤٦
الباب الثالث: الحياء في رحاب اللغة والأدب والقصة ٤٩
الفصل الأول: الحياء على متن اللغة والاصطلاح ٥١
الفصل الثاني: الحياء على ألسنة الحكماء والأدباء ٥٨
الفصل الثالث: من قصص الحياء في التراث ٦٧
الباب الرابع: الحياء في ضوء القرآن العظيم ٧١
الفصل الأول: دلائل الحياء في آي القرآن ٧٣
الفصل الثاني: معنى الحياء في حق الله عز وجل ٧٧
الفصل الثالث: الله الحيي ٨٤

الباب الخامس: الحياء في القصة القرآنية بين الدرس والقدوة . ٨٩
الفصل الأول: استحياء فتاة مدين ٩١
الفصل الثاني: استحياء الحبيب الأعظم ﷺ ١٠١
الباب السادس: منهج التربية النبوية في الحياء ١٠٩
الفصل الأول: النبي الحيي الكريم ١١١
الفصل الثاني: تربية الصحابة على مائدة الحياء ١١٥
الفصل الثالث: حقيقة الحياء في حديث سيد الأنبياء ... ١١٩
الباب السابع: الحياء في حياة الصحابة وسلوكهم ١٢٥
الفصل الأول: رجل تستحي منه الملائكة ١٢٧
الفصل الثاني: حياة أشج عبد القيس ١٣٩
الباب الثامن: من الحياء السلبي ١٣٩
الفصل الأول: ذم بعض الحياء في أقوال الفضلاء ١٤١
الفصل الثاني: متى يذهب الحياء؟ ١٤٥
الفصل الثالث: إذا طار الحياء من النساء ١٤٩
فهرس الموضوعات ١٥٩

* * *